# فدية المسك

الإهداء

إلى روح نورة...وكل روحٍ أُزهقت برائحة العطر...

البداية

حبيبتي إيلين...

إنّها لفاجعة كبيرة أن يخطف الموت بلحظةٍ شابّين أخوين، فيصبح خمسة أطفالٍ يتامى وصبيّتان أرملتين...

لروحيْ ابنيْ عمّك الرحمة والسلام ولك ولأحبابك العمر الطويل يا غالية.

بلّغي عزائي إلى أخيك الغالي حاتم...

.....

لقد صعُب على سلمى أن تهدّئ هاتفها النقال بيدها اليسرى التي كانت تنتفض طرداً مع خفقان قلبها المضطرب، بينما كانت تحاول أن تسيطر على أصابع يدها الأخرى كي تلمس الحروف التي تدلّها عليها عيناها اللتان لم تستطع أثواب الحداد التي لفّت قلبها باكراً أن تعكس لونها عليهما، لكنّها مسحتهما بعصارةٍ من حزن وقهر إلى أجلٍ غير مسمّى...

بعد جهد. انتهت الرسالة وتمّ الإرسال.

إنّه الواجب الذي حتّم عليها أن تعزّي أبناء أختها المرحومة نورة بابني عمّهما اللذين توفّيا بطلقٍ ناريّ بالخطأ من قبل مجهولين قيل أنهم من دورية حرسٍ الحدود المكلفة من قبل أحد الأحزاب الخارجية التي تشارك في الحرب السورية، وذلك أثناء قيام الشابين بنصب أفخاخٍ صغيرة في السهل، لتلتقط لهم ما تيسّر من أسراب عصافيرٍ الزرعي التي ظلّت مصمّمةً منذ زمنٍ بعيد أن تجعل لها من السهول الممتدّة بين السهل والجبل فيٍ الجنوب السوري محطّة استراحة، تأخذ فيها وجبة طعامٍ من حبّات القمح والشعير المنثورة أرضاً، وتتابع هجرتها متحدّية بذلك عبث البشر والتقلّب المعتاد لمزاج الطبيعة، آملةً الوصول إلى أماكن أكثر دفئاً وأماناً.

رسالة العزاء هذه فتحت في نفس سلمى رسائل مطوّلة، مطويّةً في ركنٍ بعيدٍ ومظلم من أركان قلبها المكلوم بالفقد والندم منذ ستّةٍ وثلاثين عاماً، على أمل أن تقرأها إيلين ذات الأربع سنوات يوماً ما.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

أعلم يا صغيرتي أنّ أبجديّات الأرض كلّها لا يمكن أن تعوّض طفلاً عن إحساسه بالأمان المقترن بلفظ كلمة (ماما). تلك التميمة الساحرة التي إذا ما حُرم أحدٌ من نطقها فإنّ شبح اليتم سيتغلغل في ثنايا روحه مهما كانت محصّنة بالقوّة والجمال، وإنّ طرده من بين طيّاتها سيصبح ضرباً من المستحيل مدى الحياة.

كانت ليلةً ظلماء وباردة من ليالي آذار حين اختار اليتم روحي، وقد كنت وردةً تنتظر نيسان لتتفتّح من أكمامها، فأُكمِل عامي الثامن عشر.

يومها أعلن شبح اليتم الإقامة الجبريّة بيننا، وقد أيقنّا منذ اللحظة الأولى أنّه باقٍ هنا إلى آخر خريفٍ من العمر، فرفعنا له الراية البيضاء أناً وإخوتي التسعة ومن بيننا أمّك نورة، مفسحين له مساحةً كبيرة نتفاوض عليها لاحقاً.

لكنّه لم يكتفِ، بل ظلّ يبحث عن مكانٍ أوسع لأذرعه الطويلة، وقبل أن يكمل السنة الأولى من احتلالِه البغيض لأرواحنا كان قد عثر عليكما أنت وأخيك، حيث كنتما برعمين صغيرين يعِدان الحياة بأغصانٍ وارفة. وفي هبوب رياح شباط وشمسه المطرودة عن فضائنا، قبض الموت بأيدٍ مفزعة على روح نورة. لنصبح وأيّاكم يتامى خلال عامٍ واحد.

.....

لستُ أنسى يا إيلين جديلتيك الناعمتين بلونهما الخرنوبيّ تلوّحان على كتفيك الصغيرتين، وعينيك العسليّتين الواسعتين تبحثان عنّي بين النسوة المتجمّعات في بيت العزاء القريب من بيت جدّك لأبيك.

حين التقتْ عيوننا فتعانقنا عناقاً طويلاً سمعتُ من خلاله صوت قلبك الصغير يعاتبني:" أين أنت يا خالتي؟ إنّي وأخي نشتاق إلى رائحة أمّنا التي تخبّئينها في صدرك وإلى صورة وجهها العالق في مخيّلتينا كحلمٍ قديم، علّها تتوضّح معالمه من خلال وجهك الأقرب إليها".

فاضت عيوني دمعاً حارّاً بينما فاضت عيونك بفرح اللقاء، قبّلتُ خدّيك الطريّين فشممت رائحة أمّك تتغلغل في مسامات روحي، أمسكت بيدك وخرجنا نجلس على مصطبةٍ بعيدةٍ عن أصوات النساء الباكيات، ألقيتِ رأسك الصغير على صدري وحاولتِ أن تمسحي دموعي وأنت تمعنين النظر إلى وجهي وعلى شفتيك الكثير من الأسئلة، كنت أظنّ أنّ أوّلها سيكون عن سبب غيابي عنكما أنت وأخيك لأكثر من عامين بعد وفاة أمّك، ولأنّ الإجابة تطول كثيراً وتحتاج إلى سنواتٍ قادمة حتّى تصبحين قادرة على استيعابها، أسرعتُ وسبقتك بالسؤال:

- كيف عرفتِ أنّني هنا يا حبيبتي؟

أجبتِني أنّ امرأةً طيّبةً من أقارب أبيك خرجتْ من بين النسوة لتخبرك فعادت برفقتك ورجلاك الصغيرتان تسابقان الريح.

ثمّ انهالت عليّ أسئلتك المفعمة بالفقد والحزن وعيناك مازالتا تتأمّلان وجهي:

- هل كانت أمّي تشبهك يا خالتي؟ أخبريني عنها، تقول لي عمّتي أنّها كانت من أجمل النساء.

أقاوم غصّةً علقتْ في حنجرتي، أبتلعها مرغمةً، وأفتح أجفاني أكثر وأكثر حتى يغور الدمع في المحاجر رفقاً بقلبك الرهيف، لأقول لك:

-كانت أمّك تشبهك يا إيلين، وكأنّها كانت تعرف أنّها سترحل عنك، فأورثتك جمال عينيها وهاتين الجديلتين الحلوتين، فقد كان لها مثلهما وهي في عمرك وظلّتا تزيّنان وجهها حتى صارت صبيّة.

سامحيني يا إيلين لأنّني كذبتُ عليك يا خالتي، تلك كانت محاولةً مني أن أبعث معك رسالةً إلى مرآتك كي تخبرك دوماً أنّك ابنة نورة الجميلة فتبتسمين مزهوّة بنفسك، عسى أن يخفّف ذلك عنك ألم اليتم.

في الحقيقة يا إيلين لا أنا ولا أنتِ ولا أيّ امرأةٍ من نساء الأرض كانتْ تشبه أمّك، فتميّزها عنهنّ جميعاً كان جليّاً واضحاً لكلّ من نظر إليها، ليسحره من النظرة الأولى ذلك الانسجام والتناسق في قدّها الممشوق وطولها المعتدل وصدرها الناهد الذي يشي بأنوثةٍ صارخة، ومشيتها الرصينةِ كمشية مليكاتٍ لم تشاهدهنّ يوماً على شاشة التلفازِأو جهاز خليوي. وأمّا عن بشرتها الصافية بلونها القمحي المائل للبياض، فقد كانت آيةً من الجمال الربّاني الصافي. ولو أنّ

جدّك أحمد كان قد سمع في ذلك الزمن بالشاعر جرير وشِعره الشهير عن العيون الحور لما تردّد في أن يُسميها حوراء لشدّة سواد حدقتيها الواسعتين، الذي جعل منهما جوهرتين سوداوين سقطتا على بقعةٍ من الثلج، وإنّ تطابق لونهما مع لون شعرها الكثيف المجعّد والمنسدل على كتفيها حرّاً أحياناً ومجدولاً أحياناً أخرى، وشفتيها القرمزيّتين مع أسنانها البيضاء مثل كوب حليب طافت على سطحه بتلات الجوري، وأنفها الصغير المنحوت خصّيصا لوجهها البيضاوي البديع. هذه الأوصاف مجتمعةً مع مسحة الحياء التي أضفت على وجهها لمسةً ملائكيّة، كانت تشكّل هارموني من السحر والجاذبية الملفتة، وترسم لوحةً أقرب ما تكون إلى صور آلهات الجمال التي ابتدعها الرسّامون القدماء من وحي خيالهم الخصيب.

""""""""""""""""""""""""""""""""

عيناكِ البريئتان يا إيلين استطاعتا بنظرة الوداع الحزينة أن تجعلا بحر الحنان الساكن في أعماقي يموج، موقظاً بهديره صوت أمّك المعشّش في ذاكرتي وهي تردّد اسميكما أنت وأخيك حاتم. ولكن هذه المرّة بنبرةٍ مختلفة شعرتُ معها كأنّها توصيني بكما وتطلب منّي أن أقفز فوق كلّ الحواجز التي تفصل بيننا، وتحثّني أن أحمل لكما بين الحين والأخر ما تيسّر لي من جرّة الحُبّ التي صارت بعهدتي بعد رحيلهما هي وأمّي، فتذكّرني بأمّي (شهلا) التي عوّدتنا أن لا تنقص جرّة الحُبّ أبداً حتّى وإن فرغت جرار اللبن والزيت ونفد الخبز من بيتنا الحميم الذي عمّرته بيديها السخيّتين العصيّتين على الشُحّ، وقلبها الكبير الذي داهمه المرض باكراً و لم يتمكّن من أن يضيّق مداه. بيتنا الذي وسّعته أمّي بالصبر وتركت بابه مفتوحاً دوماً على مصراعيه للأهل والأحبّة ، و لم تفتح نوافذه إلّا لنور الشمس تطهّر أركانه بالصدق الذي طالما اعتبرته الركيزة الأقوى، رغم صعوبة الأيّام وعسرها وصعوبة مراس المجتمع المحيط وحدّة طباع زوجها أحمد (أبي )

هذا البيت المتواضع استوعب ازدحامنا فيه عشرة أولادٍ لأمٍّ لم تتجاوز الثلاثة وأربعين عاماً.

عاشت شهلا كما الجميع من حولها يعتقدون أنّ زيارة الطبيب لا لزوم لها إلّا إذا لوّح لهم شبح الموت بمنديله الأسود، والذي غالباً ما تكون خطواته أسرع من وصول الطبيب إلى تلك

القرى الفقيرة، و بذلك يكون لا بديل للمرأة عن الإنجاب المتواصل إلّا بتدخّلٍ من الزمن، ليضع لها نهاية لهذه المهمّة الشاقّة، أو أن يسبقه القدر فيأخذها إلى عالمٍ آخر قد يكون أرحم وأقلّ إنهاكاً لروحها وجسدها، كما كان أمرُه معها حين توقّف قلبها عن النبض لرقّة ثناياه وشدّة ازدحامنا فيه، خطفها الموت إشفاقاً عليها لكنّه لم يشفق علينا، نحن أولادها، عشرة ثالثنا نورة وخامسهم أنا، بيني وبين نورة أربع سنواتٍ كنت أحياناً أشعرأنّها أربعون سنة، فأجد نفسي طفلتها المدلّلة، تحنو علي وتغمرني بقلبها الرقيق، وأحياناً أخرى تصبح السنوات أربعة أيّام فإذا بنا صديقتين حميمتين تجمعنا الأسرار والحكايا، نختلف حيناً ونتصالح كلّ الأحايين، لعبتنا المفضّلة وضع نقاطٍ على السطور بمسافاتٍ كنّا نظنّ أنّها متساوية، نتسابق بتشكيل المربّعات وتتركني أفوز ، فتضحك عيناها بفرح الأمّ بابنتها.

"""""""""""""""""""""""

ولم نكن نعلم بعدْ أنّه إذا اختلفت المسافات بين النقاط ستنحرف المربّعات وتَفسد اللعبة فيخرج أحد الطرفين ليس مهزوماً فقط بل ومظلوماً أيضاً.

ولم يخطر في بالنا يوماً أنّ نورة ستغلق على نفسها مربّعاً لا تعرف الخروج منه...

"""""""""""""""""""""""""""

مُرّة (شهلا)

ما فعلتْه مُرّة الطفلة الشقراء جميلة المحيّا ذات الخمس سنوات والتي يشعّ الذكاء من عينيها، لا يخطر على بال أحد. حين مرّ لزيارة والدها ضيفٌ غريب، فلفتَ نظره ذكاؤها ووجهها الجميل وأبدى أسفه حين عرف اسمها الذي يخالف تماماً الحلاوة التي تفيض بها الطفلة، وما يوحيه هذا الاسم لسامعه من قهرٍ ومرارة بمشاعرالأهل حين يرزقهم الله مولوداً أنثى. تلك الحقيقة التي لا يخفيها أو يخجل بها أحد في ذلك الزمن. فما كان من مُرّة، إلّا أن اختارت لها اسماً من بين الأسماء التي اقترحها الضيف، وبذكائها الفطري وعنادها المعهود استطاعت أن تبدّل اسمها حتى صار (شهلا) وعلى لسان الجميع.

ثمّ وبتوسّلها الدائم لأبيها استطاعت أيضاً أن تقتنص من الحياة يوماً واحداً عند الكُتّاب، يوماً يساوي لها أعواماً كاملة، حفظت فيه الأحرف الأبجديّة، فصارت لها سراجاً خافتاً من النور كان بالنسبة إليها أرحم ألف مَرّةٍ من عتمة الأُمّيّة السوداء، بل وجعلت منه شمعةً ذهبيّةً مخبوءةً في صندوق أحلامها إلى حين الحاجة، فقد كانت بيوت الفلاحين القرويّين في أربعينيات القرن الماضي تكاد تخلو تماما من ورقةٍ وقلم وأصحابها نادراً ما يلجأون إلى استخدام القراءة والكتابة في إدارة حياتهم اليومّية، لكنّ شهلا كانت تحلم بأن يأتي يوم تمسك بين يديها كتاباً فتقوم بتوصيل حروف كلماته وقراءتها لتنتشي روحها التوّاقة إلى العلم والمعرفة. ولم يكن حلمها الكبير هذا وحده ما يميّزها عن قريناتها من البنات بل أجوبتها اللمّاحة وسرعة البديهة التي كانت تتحلّى بها، حين كانت تنضم إلى البنات اللواتي يكبرنها سنّاً إذ تتشكل بينهنّ حلقات السجال

وينقسمن فريقين حسب لون البشرة...فتنشد صاحبة البشرة السمراء:

(نحنا السمارى نحنا السمارى

نحنا القهاوي بيّدين الأمارى

روحي يا البيضا لطْش الحوارة

عليّة خيّي مثلك مدهونة)

وتردّ عليها صاحبة البشرة البيضاء:

(نحنا البيض يا فلّ وياسمين

ياحبّ اللولو غالي وثمين

يتغاوو فينا ملوك وسلاطين

وإنتي يا السمرا ما حدا يسوما)

فإذا بسمراءٍ تشعر بالغبن والظلم فتردّ بحجّةٍ أقوى قائلة:

(نحنا السمارى نحنا شوعملنا

نحنا القرنفل غالي ثمننا

روحي يا البيضا شنينة لبنّا

ذبّان الحارة عليك يحوما)

وهنا يأتي دور شهلا، بشقارها النادر، فتقول:

(آني يا الشقرا يا ذهب خالص

يتقاتلو عليي ملوك وفوارس

ولو إنّي كنت بنت مدارس

لأحكم فيكن حكم فرعونا)

إلّا أنّ هذه الدماثة والجمال كلّه لم يشفع لها عند والدها خليل، ولم يثْنه ذلك يوماً عن أن يصبّ جام غضبه عليها هي وأخواتها الثلاث وأمّهنّ وجدتهنّ أم حامد.تلك الأرملة الفلسطينيّة الأصل، الصفديّة المولد، التي صارت هي وابنتها بعد اغتصاب فلسطين غصنين يابسين قُطعا من شجرةٍ بعيدة، بإمكان خليل أن يرميهما في النار دون حسيبٍ حين يشاء مزاجه ذلك. فبعد تقطّع السُبل في وجهها وحرمانها من الأهل والعزوة صار الخضوع لخليل أمراً لا مفرّ منه.

خليلُ الذي لفحته رياح اليتم منذ الصرخة الأولى، حيث أغمضت أمّه عينيها إلى الأبد لحظة لفظته من رحمها، وقبل أن ترى الأيادي الخشنة التي استقبلته مرغَمة، ليتنقّل ملفوفاً بثوب الفقر على كفوف الشفقة بين أثداء الأمّهات المرضعات، الله وحده يعلم ما كان يدور في صدور هاتيك الأمّهات وهنّ يطعمنه من طعام أولادهنّ، وكم أمّ سحبت ثديها من فمه قبل أن يشبع لتترك ندبةً قهرٍ و بذرة ساديّة في قعر نفسه. وكم من أمّ أرضعته حليباً ماصلاً لم تستطع أن تكتّفه بزبدة قلبها المخبّأة لوليدها فقط. فنما جسده وظلّ قلبه حجراً مركوناً في أيسره يزداد قسوةً كلّما تلقّى صدمةً جديدة من صدمات طفولته المعذّبة، يضخّ الدم القاتم إلى رأسه لتتطاول أشواك العدائيّة، تؤرّقه بوخزها حين تتمدّد على جدران رجولته الهشّة التي

اعتقد جازماً أنّها ستظل هكذا ما لم تنجب له زوجته ذكراً. فصار مستاءً دوماً من حظّه التعيس، يعاتب ربّه كلّ يوم ألف مرّة ويسأله ذات السؤال: كيف يا ربّي تمنحني هذه البُنية القوية وهذه الرجولة كلّها وتمنع عنّي ولداً ذكراً أُلَقب به بين الرجال فيتمّ عليّ رجولتي، ويحمل اسمي بين الناس فأضمن تمدّدي بينهم؟

وإذا بدهاليزه المظلمة تهبّ فيها نار الحرب على الأنوثة بدءاً من الحياة ووصولاً إلى زوجته وبناته .

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

كان الطارق مازال معلّقاً في السماء فجر يوم الجمعة أحد أيّام أربعينيّة الشتاء، التي بدأت بإرسال رياحها الغربيّة الباردة عندما وصلت أم حامد إلى باب المزار، كانت تلفّ رأسها بشماغ فلسطينيّ ظلّت تحتفظ به إلى آخر العمر تشتمّ فيه ريحة الأهلٍ والأحبّة، وعظام قدميها الحافيتين كادت تطقطق من شدّة البرد، عندما مدّت يدها المرتجفة لتفتح الباب سمعت صوتاً خافتاً يناديها:

جدّتي... جدّتي...

تسارع النبض في صدرها وسرى الخوف إلى قلبها للحظاتٍ، أدركت خلالها صوت شهلا فالتفتت إلى الخلف والدهشة تفرّ من عينيها:

- شهلا ؟؟ ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت وكلّ هذا البرد يا ابنتي؟

ودون أن تنتظر إجابةً، اقتربتْ من الطفلة وضمّتها إليها، حين شاهدتها قد لفّت رأسها بملاءةٍ رقيقة ووجهها الجميل قد صار لونه مزيجاً من الحُمرة والزُرقة لشدّة البرد، كان جسدها النحيل يرتقص برداً تحت ثوبها الرقيق ، وقدماها حافيتين يكاد الدم يفرّ من بين أصابعهما المتيبّسة.

- تعالي إلى الداخل يا حبيبتي...

أغلقت أم حامد الباب خلفها وأشعلت شمعتين بالقرب من المقام، عسى أن ينسلّ من لهيبهما الخافت خيطٌ رفيعٌ من الدفء والنور إلى وجه الطفلة فيعيد إليه لونه، ثمّ خلعت عن رأسها شماغها المتناوب التلوين بين الأبيض والأسود، ولفّت به كتفي شهلا حتّى سرى الدفء في أوصالها وقدميها واستعادت شيئاً من قدرتها على الهدوء والكلام، فسألتها:

-لماذا لحقتِ بي يا شهلا؟

-أنا أعرف أنّك تأتين إلى هنا كلّ يوم جمعة حافية القدمين نذراً للمزار كي يستجيب لك ويفتح الطريق إلى فلسطين، فيعود إليك أهلك

حبست أم حامد دمعةً في عينيها، فهي أقوى من أن تبكي أمام حفيدتها الطفلة التي وضعت إصبعها البارد على الورم المتقيّح وحرّكته حدّ الألم.

-نعم يا صغيرتي، أنا أتوسّل إلى الله وأرجوه أن يستجيب لي فيعيد لي أهلي، لأنني في غاية الشوق إليهم.

وأنت ماذا جئت تطلبين من الله والمزار؟

طفقت الدموع من عيني شهلا وقالت:

- أريد أن يكون المولود الذي تحمله أمّي في بطنها هذه المرّة صبيّاً، كي يرضى عنها أبي فلا يضربها ولا ينفّذ تهديده لها بالطلاق فنصبح أنا وأخواتي يتامى.

فتحت أم حامد ذراعيها وضمّت شهلا إلى صدرها الطافح بالصبر. مسحت لها دموعها بذيل الشماغ، وقالت:

-لا تخافي يا صغيرتي لن يفعلها أبوك فهو يحبّك أنت وأخواتك، ولن يقبل أن تصبحن يتامى. إنّه يهدّد فقط وقد تعوّدنا على ذلك.

-لكنّ أبي لا يحبّنا يا جدّتي!

-لا يا ابنتي، ليس هناك أبٌ لا يحبّ أولاده يا صغيرتي.

- ممكن أنّه يحبّ أخواتي، لكنّي أعرف أنّه يكرهني .

دارت في نفس أم حامد صورة خليل بنظراته اللائمة التي يواجه بها طفلته كلّما لاحظ اشتداد عودها وتميّزها وذكاءها، وصوت خلده الذي صار يُسمع مع أنفاسه الحانقة، يعاتب فيه ربّه الذي لم يعطه شهلا صبيّاً ذكراً. أخافها كثيراً ما ولّده ذلك من علامات الخوف وشعور الذنب الذي صارت تراه على وجه الطفلة ، فتلافت الموقف سريعاً قائلة:

-ما هذا الهراء يا شهلا؟ أنت ما زلت صغيرةً يا حبيبتي هيّا تعالي نقبّل المزار ونستسمحه عن ظنوننا الواهية، وندعوه أن يطيل في عمر أمّك وأبيك، وأن يرزقكم الأخ والسند.

وضعت شهلا شفتيها وجبينها على الحجر الأصمّ، لم تعرف ما تحمّله من رسائل إلّا أنّها بلّلته بالدموع، وتركت العنان لقلبها الصغير يرفرف في فضاء الأمنيات.

.....

قطّبت الداية حاجبيها ونظرت نظرةً حادّة في وجه أمّ البنات ونهرَتْها:

-هيّا يا امرأة أعيني ولدك هل ستخبّئينه في بطنك إلى الأبد ؟

كانت أمّ البنات تسبح في بركةٍ من العرق والدموع. تمسك بيد أمّها التي لم تتوقّف لحظةً واحدة عن الدعاء والتميمات في سرّها وعلى لسانها، مذ أيّقظتها ابنتها فجراً لتخبرها عن بدء المخاض. والآن وقد انتصف النهار، التفتت إليها ابنتها والخوف والحسرة يسيلان مع دموع عينيها الواسعتين على وجهها اللطيف وهمست بصوتٍ متحشرج:

-هل ستكون الخامسة يا أمّي؟؟

-سلّمي أمرك لله يا ابنتي فهو أكرم الأكرمين.

نظرت أمّ البنات إلى سقف البيت الباهت، الذي لم يسمح خليل بإعادة طلائه خوفاً من أن يمتزج مع ماء الكلس رشّة سعادةٍ ترتسم في البيت قبل مجيء الصبي. علّقت نظرها في القنطرة فرأت بقع التراب المتقشّر عنها الكلس عيوناً شامتة، وأفواهاً فاغرة وألسنةً تتدلّى بسخرية. أغمضت عينيها هرباً منها فذهبت في غفوةٍ قصيرة شاهدت خلالها رجلاً عجوزاً كان جاراً قديماً لهم، مات منذ سنوات، أقبل نحوها حتّى صار قريباً

جدّاً... وإذ بمغصةٍ قويّة فتحت عينيها، فاستبشرت خيراً في سرّها وأحسّت بقوّة عارمة سرت في جسدها وهمست (الله كريم)، أمسكت بيد أمّها من جهة ويد الداية من الجهة الأخرى وضغطت بكلّ تلك القوّة التي لا تعرفها غير الأمّهات الولّادات وصرخت صرخةً مدوّيّة اخترقت جدران الطين والحجر، وهزّت أركان الغرفة المجاورة التي آوت شهلا وأخواتها، الصغيرتان منهنّ تحضنان وسائد صغيرة أطلقن عليها أسماءً ذكوريّة تلعبان معها دور الأمومة المتعبة، بينما جلست شهلا وأختها الأكبر واجمتين خائفتين. ارتعشتا معاً عندما سمعتا صوت أمّهما تنادي ربّها فضمّتا ندائيهما إليها وصارتا في حالة ترقّبٍ شديد.

زفرت أمّ البنات زفرةً قويّة شعرت معها أنّ حجراً صلباً قد خرج من بطنها وحين لم تسمع سوى همهمات النسوة الخافتة يسبّحن الخالق القادر على كلّ شيء، راحت في غيبوبة... أيقظتها منها الداية بضرباتٍ خفيفة على خدّيها ورشّة ماءٍ باردٍ على جبينها، فتحت عينيها فلم تجد حولها سوى أمّها والداية، استغربت انسحاب باقي النسوة على عجلٍ .

نظرت إلى وجه أمّها فوجدته مكفهرّاً وحزيناً، التفتت إلى الداية عسى أن تقرأ في عينيها علامةً تفسّر لها غرابة الموقف إلّا أنّ الداية ظلّت مطرقةً إلى الأسفل متشاغلةً برباط المولود وتغطية رأسه ووجهه، استجمعت قواها التي كادت أن تتلاشى مع آلامها الجسديّة وخوفها، وبينما تمرّ في بالها صورة الرجل الذي شاهدته في الحلم قبل لحظات، تساءلت أيّعقل أن تكذب

رؤيا الحامل؟! خاصّةً وأنّها راودتها أثناء شدّة المخاض!! فسألت أمّها بصوتٍ ضعيف:

-هل هي الخامسة يا أمّي؟؟

!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

أجابتها أمّها والدمعة تفرّ من عينيها والحسرة تغلّف وجهها:

-لا يا ابنتي إنّه صبيّ ولكنْ...

-ولكن ؟؟ لكن ماذا؟؟

صمتت الأمّ لحظةً، فعادت ابنتها وقالت:

- هل هو ميّت؟؟!! لقد سمعت صرخته بأذني.

-لا يا ابنتي إنّه حيّ

-إذاً ؟؟ لِم هذا الحزن ؟؟

ظلّت الأمّ صامتةً...

-إذاً لم يبقَ ما يدعو للحزن إلّا أن يكون مشوّهاً.

قالت كلمتها بشفاهٍ مرتجفة وعيونٍ خائفة، ودقّات قلبها تتسارع وكأنّها تتسابق لتصل إلى الله ترجوه أن لا يصدق ظنها .. لكنّ الجواب أتى مسرعاً من بين شفتي الأمّ المصفرّتين وقالت:

-إنّها مشيئة الله يا ابنتي وعلينا أن نقبل بها...

أتى الجواب كالصاعقة ، فأجهشت ببكاءٍ مرير للحظاتٍ قصيرة ثمّ ما لبثت أن نهضت جالسةً في فراشها، مسحت دموعها بأصابعها ومدّت يدها إلى كتف الداية المطرقة بنظرها إلى المولود:

-هيه يا امرأة...هل أنت متأكّدة أنّني أنجبت صبيّ ؟؟

- نعم يا ابنتي المرأة التي تنجب البنات هي ذاتها تنجب الصبي.

- ذلك يعني أنّني لم أعد أمّ البنات؟

-نعم يا ابنتي ولكن....

- ولكن ماذا يا خالتي؟ ناوليني ابني أريد أن أراه وأرضعه.

فتحت يديها متمنيةً أنّ تكون كلّ النسوة اللواتي شاهدنَه فاقداتٍ للبصر بما فيهنّ أمّها .

ناولتها الداية الوليد وقالت:

- أرضعيه يا ابنتي إن استطاع ذلك...

عندما صار الوليد بحضنها رفعت الغطاء عن وجهه فشهقت شهقة استغرابٍ ممزوجةً بالألم، حين نظرت إليه فإذا به معافى أبيض البشرة لكنّ وجهه يفتقر إلى الأنف، وقد جعل الله مكانه فتحةً صغيرة خرجت منها قطعة لحميّة متدلّية نحو شفتيه، وكأنّ أمعاءه الدقيقة تطاولت إلى الأعلى حتّى خرجت من مكان الأنف المفقود، ممّا يبقيه فاغراً فاهَه كي يستنشق الهواء.

نظرت إليه نظرة حسرةٍ وحزن وعادت إلى البكاء والعويل من جديد فما كان من أمّها إلا أن أخذت المولود بين يديها كاتمةً في صدرها صرخةً لو أطلقتها لضجّت بها القرية كلّها، ومشت به نحو الباب والدموع تنهمر على وجهها وتسيل على رقبتها وصدرها، فتحت الباب ونادت بأعلى صوتها:

- هيييييي يا خليل... (وينك )؟ تعال يا خليل تعال...

هرع خليل مسرعاً نحوها وبناته الأربعة خلفه، بعد أن كانت النسوة قد مررن من أمامه دون أن يجبنه عن أيّ من أسئلته، وتركنه في حيرةٍ من أمره وقلق.

- أخبريني أرجوكِ؟

-هل تظنّ أنّ هناك من هو أقوى منك يا خليل؟

أجابها متجاهلاً نبرة السخرية والقهر

-لِم هذا السؤال الآن؟ أخبريني (خلّفت ) بنتك؟ ماذا أنجبت هذه المرّة؟

- نعم (خلّفت ) وأنجبت لك الصبي الذي تريد، لكنّ هذا الصبي ينقصه قطعة لحم صغيرة مشيرةً بيدها إلى حجم رأس سبابتها، فهلّا أكملته أنت ؟؟؟

قالت وهي تتمتم بالاستغفار والتعاويذ...

- ماذا تقصدين يا امرأة؟؟

-أقصد أنّ هذا المولود يحتاج إلى أنفٍ صغير حتّى يكتمل، أظنّ أنّ ربّ العالمين قد ترك مسؤوليّة خلقها لك إذْ تجدّ نفسك قوياً وحكيماً أكثر منه .

ناولته الوليد بين يديه، وحين نظر إلى وجهه الغريب الشكل أحسّ أنّ قواه قد خارت تماماً، فركع على ركبتيه واضعاً المولود الملفوف بالأغطية أمامه على الأرض رفع يديه إلى السماء والدموع تغرق وجهه نادى بأعلى صوته:

- سامحني يا ربّي أنت القويّ ولا أحد سواك....

كان ذلك يوماً فاصلاً في حياة خليل وأسرته فقد زلزل هذا الحدث الجلل أركان جبروته وهدم جدران عنفوانه الأعمى، وقد ظن الجميع أنّ ما حصل قد فتح مغاليق قلبه ليدخل إليه النور، حيث تحوّل غضبه وحنقه الدائمين إلى ندم ورضىً واختار للمولود اسماً يعبرفيه عن توبته وامتنانه لله فأسماه فضل الله .

فضل الله الملاك الصغير، لم يعشْ طويلاً، فقد انتهت مهمّته بعد أقلّ من شهرين، استطاع خلالهما أن يلقّن خليل درساً عجز عنه كلّ الذين كانوا يسدون إليه النصح والإرشاد خلال سنوات عمره التي قاربت الأربعين، فقد جعل هذا الطفل قلب والده المتحجّر يتفتّت كالرمل كلّما حاول الرضاعة وكاد أن يختنق لعدم دخول الهواء من أنفه المفقود، وكلّما بحث عن ثدي أمّه ومُنع عنه. ظلّ يبكي جائعاً إلى أن نحل جسده الصغير يوماً بعد يوم فرفرفت روحه إلى السماء تاركاً على وسادته بعضاً من الوبر الأشقر الذي كان يغطّي رأسه، فقامت

أم حامد بجمعهم في منديلٍ أبيض خبّأته في صندوق ثياب ابنتها وأوصتها بعد أن هجعت نيران فقدها لوليدها أن تجعل هذه الصرّة الصغيرة أيّقونةً يتناقلها أحفادها.

رحل الطائر الصغير ولا أحد يعلم إلّا شهلا ثقل الحمل الذي انتزعه عن كاهلها بمنقاره المشوّه.

فبالرغم من كلّ الحزن والأسى الذي خيّم على البيت والذي كاد أن يفطر قلب والدتها، والندم والانكسار اللذين ارتسما ضعفاً على وجه أبيها وصوته، وهدوئه المستغرب والكئيب، إلّا أنّها شعرت بالتحرّر والارتياح، فقد استعادت الآن حقّها بالحياة كأنثى مثل أخواتها ولم يعد جمالها وذكاؤها مصدر استفزازٍ وحنقٍ لأبيها كما كان، فها هي تتنقل في أرجاء البيت كطائرٍ حرّ طلّيق، تخاطب أمّها وأخواتها بصوتٍ يخفي وراءه موسيقًا فرحٍ صامتة، تخشى أن يسمعها أحد فيظنّ ذلك بلادةً أو شماتة.

لكنّ الصفعة لم تعلّم في وجه خليل طويلاً فما لبثت أن انمحت آثارها ونسي طعم الألم. واقتطع تلك الفترة من حياته نهائيّاً بعد سنتين حين رزق بمولودٍ ذكر أسماه فاضل، وصار يُدعى أبا فاضل.

وبعدها صار المخاض على أمّ فاضل أسهل وأخفّ وطأة مع تدنّي حدّة التوق التي كانت تلازمهم لقدوم الصبي، وتوالت البشرى مع زغرودة أمّ حامد مرّة كلّ عامين حتّى صاروا سبعة صبيان.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

تململت شهلا في فراشها قبل طلوع الفجر، فإذا بأختها الأصغر التي تنام بجانبها تهمس في أذنها أنّها هي الأخرى صاحية، فقد نامتا مع غروب الشمس في ليلةٍ شتائيّة طويلة، حيث ينام الجميع في غرفة واحدة تدثّرهم اللحف ودفء موقدٍ وحيد يشتعل طوال النهار بما يجمعونه خلال أيّام الصيف من حطب كروم العنب وما صنعوه من أقراصٍ من روث الحيوانات. وقد فاض النوم عن حاجة عيون الطفلتين وجسديهما اللذين توهّنا من طول فترة التقلّب على الفراش. فدارت بينهما أحاديث طفوليّة تتخلّلها ضحكاتٌ وقهقهاتٌ خافتة تنمّ عن سعادةٍ مؤقّتة سينهيها صوت والدهما بأيّ لحظة، إلّا أنّهما لم تستطيعا لجم صوت تلك الضحكات فكان يعلو تارةً ويخبو تارةً إلى أن وصل إلى مسامع خليل فتيقّظت بذرة الساديّة التي كانت قد بدأت تزيح عن أشواكها التربة المبلّلة بالخشوع بعد حادثة فضل الله. فنهض من فراشه غاضباً وأمر البنتين أن تنهضا أيضاً وتبدآن فوراً بالعمل على تنظيف زريبة المواشي ونقل كلّ ما تجمّع فيها من زبل خلال الأيّام الماضيّة إلى كرم العنب الذي يبعد عن الدار مسافةً ليست بالقصيرة. باشرت الطفلتان اللتان لا تتعدّى أعمارهما اثنتي عشر عاماً العمل والدموع تحرق وجهيهما، فاستلمت كلّ واحدةٍ منهما وعاءً عميقاً مصنوعاً من القش ، ولوح تنكٍ صغير تغرف فيه الزبل بيديها الصغيرتين المزرقّتين من شدّة البرد، فتملأ الوعاء وتحمله على كتفها وتمشي على الطريق الذي اختلطت تربته بذرّات الصقيع، بحذائها البلاستيكي الرقيق الممزّق. فتفرغ حمولتها على كعب دالية العنب العارية، وتعود الدرب الذي تتخلّله طلعةٌ قاسية، لتعيد الكَرّة.

بعد أن أفرغت شهلا الوعاء للمرّة الثانيّة وهمّت بالعودة لم تعد تشعر بالبرد، فقد صعد الدم إلى رأسها وشعرت كأنّ ناراً قد أولعت في وجهها وصدرها، وحين صارت خطواتها تغالب الطريق الصاعد أحسّت أنّ قلبها تجمّد و سيتوقّف عن النبض، فطلبت من أختها أن تنتظرها قليلا كي تأخذ قسطاً من الراحة وألّا تسبقها في العودة حتّى لا يزداد غضب والدها عليها، وبعد عدّة جولاتٍ من مقارعتها الطريق بأطرافٍ مزرقّة وقلبٍ مثقلٍ بالوجع، شعرت شهلا أنّها ستنهار تماماً فتمالكت نفسها إلى أن وصلت بوابة الدار، أغمضت عينيها وأحسّت أنّ الدار تدور حولها بسرعة وأنّها ستفرغ ما في معدتها الفارغة أصلاً، فسقطت على الأرض مغميّاً عليها، صرخت أختها بصوتٍ مزّق سكون الصباح واخترق الباب المغلق على أمّها التي ما انفكّت تمسح دموعها بصمتٍ وخوف، تحضن فاضل وتومئ بإصبعها لابنتيها الأخريين أن تصمتا تماماً كي لا تُلحَق بهما عقوبة كأختيهما.

هرعت أم حامد حيث كانت قد هبّت لمساعدة حفيدتيها رغماً عن خليل. وهي ما تزال تجمع الزبل وتهيّؤه لتملأه لهما في الأوعيّة ريثما تلتقط البنتان أنفاسهما. ولمّا رأت شهلا مغميّاً عليها صاحت "الله لا يوفقك يا خليل"، وأسرعت فحضنت شهلا وهرع خليل غاضباً تتبعه زوجته، فحمل ابنته ودخل بها، مدّدها بجانب الموقد وغادر الغرفة.

.....

حين بزغت شمس شهلا كان أحمد يحاول مجدّداً أن يفتح أجفانه التي قرّحها السهر على فراق محبوبته التي انتُزعت من قلبه عنوةً.

أحمد الذي جعلت منه أمّه وخالاته الأمل المنشود بذَكرٍ يكون لهنّ الحامي والسند، هاتي النسوة يتيمات الأب ومحرومات الأخ كنّ يتسابقن في خدمته وتدليله، فيحرمن أنفسهنّ ليخصّصن له ما تميّز لديهنّ من طعامٍ وثياب ، فشبّ الطفل بداخله قبل الأوان واسترجل باكراً، وهو بكر أبيه الذي تنازل له عن زمام السلطة الأبويّة في البيت. فكان شديد الاعتداد بنفسه لولا الفقر الذي كان عدوّه اللدود هو المرابع ابن المرابع الذي تمرّد على وضعه فأتعب أبويه معه، أرسله أبوه إلى الكتّاب فترة من الزمن فتعلّم القراءة والكتابة بذكاءٍ وشغف وحفظ بعض الكلمات الفرنسيّة التي التصقت بذهنه طول العمر لكنّ الفقر عاد ليسحبه من بين أقرانه، ليسير مع مجموعةٍ من الرجال للعمل في فلسطين أثناء الانتداب البريطاني عليها، فقطع المسافات الطويلة مع رجال تزيد أعمارهم عن عمر أبيه وهو لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً، ركبوا البوسطة إلى لبنان ومن هناك اتّخذوا لهم طريقاً يوصلهم إلى فلسطين مشياً على الأقدام لعدم توفّر النقود، فكان أحمد كتلة نشاطٍ وحماس، فرْحته بمغادرة القرية وترك العمل في حقول الإقطاعيّ وخلف مواشيه، وما يرافق ذلك من خضوعٍ و إذلال جعله لا يشعر بالتعب وطول الطريق، وحين صارتْ ليراته الفلسطينيّة تصل إلى كفّ والده تعينه على معيشتهم القاسية وتسدّ رمقهم من الجوع، انهالت له الدعوات من قلوب أهله وخالاته، وصار لهم مصدر فخرٍ وتباهٍ ممّا زاده

اعتداداً بنفسه أكثر، وحين عاد مع السوريّين الذين تمكّنوا من الخروج من فلسطين قبل دخول الصهاينة إليها، بعد أربع سنواتٍ من الهجرة والعمل الشاقّ كان قد أصبح شابّاً يحمل في جعبته شهادات رفاق سفره بطيب أخلاقه ومواقفه الرجوليّة، إضافةً إلى بعض الليرات التي لم تختزل شيئاً من الشحّ والعوز أمام كثرة الأفواه الجائعة.

فعاد مجبوراً للعمل فلّاحا في أرض الإقطاعي الذي اقتطع مساحاتٍ واسعة من أراضي القرية لقاء أعداد بخسة من ليراته الذهبية التي حالفه الحظ بنبشها من بين البيوت التي بناها الرومان ودفنوا تحتها ما اكتنزوه من جواهر وذهب ومن ثم مدّ يده لمصافحة المحتلين الأجانب الذين ألبسوه عباءة الزعامة وملّكوه عيون الماء وصار معظم أهالي القرية يعملون عنده مرابعين يشربون أو يعطشون هم ومواشيهم حسب رضاه.

"""""""""""""""""

أحمد طويل القامة عريض الكتفين، له وجه جذّاب كوجه فنّان من فنّاني الزمن الجميل، بشرته السمراء تزيده رجولةً ووقار، وعيناه اللوزيتان تبعثان بنظراتهما طيفاً امتزج فيه سحر الرجولة مع رقّة المشاعر والإحساس. فكان حين يشبك يده على الدبكة مع الشباب تكون له القيادة دوماً يصدح بصوته الجهوريّ الحنون من فيض قلبه العاشق قصائد تتغنّى بجمال محبوبته التي التقاها على دروب عين الماء تحمل جرةً على كتفها وترخي شعرها الفاحم من تحت منديلها الذي يلتفّ

حول وجهها الجميل . فيكثُر الهمز واللمز بين الحضور، فظنّ الشاب ذو الثمانية عشر عاماً أنّه بهذه الرجولة والوسامة والحبّ الذي ملأ قلبه وفاض على لسانه قصائد يطرب لها ويردّدها كلّ من سمعها، قادرٌ على أن يحظى بمحبوبته بكلّ يسرٍ وسهولة، لكنّ أحلامه كانت أجمل من الواقع بكثير وسقف توقّعاته لم يرتفع بعد إلى حدود الاحتمالات الصعبة والقاسية، فإذا بقصة الحبّ التي شاعت في القرية وصارت على كلّ لسان حتّى صارت البنت موشومةً بها فتجعل أباها يرفض أحمد رفضا قاطعا شعر معه أحمد أنّ رأسه المرفوع عالياً قد ارتطم بجدار بيت أهلها حتّى كاد أن يقفز عقله منه، وأيقن حينها أنّه جنى على نفسه وحبيبته وحبّهما الجميل.

أعاد أهله الطلب مرّات كثيرة مع إرسال الوساطات والكدّات إلّا أنّها قوبلت بالعناد والرفض الشديدين ممّا زاده تعلّقاً وعذاباً، حتّى صار طريح الفراش واحتار أهله بمداواة قلب ابنهم الجريح، فصاروا يلجأون إلى المشعوذين تارةً كي يفكّوا عنه سحر الحبيبة، وتارةً إلى المشايخ ليكتبوا له الحجابات التي تهدّئ سرّه وتجعله ينسى، فيقاوم السهر الذي أفقده بريق عينيه وسحر ابتساماته لشهورٍ طويلة. وحين وصله نبأ تزويج حبيبته من ابن عمّها رغماً عنها، ازدادت حالته سوءاً وهيمنت الكآبة عليه وعلى أهله شهوراً بل سنوات أخرى.

إلّا أنّ دمّ الشباب ظلّ ينبض في عروقه، واتّقاد الحياة في قلبه عاد يدفّئ أوصاله رويداً رويداً...

ويوماً بعد يوم استسلم للأمر الواقع وصار من الضروري محاولة نسيانه والعودة إلى حياته الطبيعيّة بعد أن كادت هذه العاصفة تمزّق روحه.

وبعد أن نفض عن قلبه ما علق من غبارها قرّر أن يعود ليمسك بيد رفاقه الشباب على الدبكة ويستلم القيادة في عرس ابن عمّه، فكان له ذلك مع التهليل والترحيب وحين علا صوته يقول:

(ردّي جعودك ردّيها...... وحاجي تتغاوي فيها)

كانت شهلا بين الحاضرين مشروع صبيّة ألبستها أمّها ثلاثة أثوابٍ بعضها فوق بعض لتمنح جسدها النحيل علامات الصبا.

ولمّا دارت حلقة الدبكة الدورة الأولى لمح أحمد وجهاً أبيضَ وعينين عسليّتين ترمقانه بشغف الصبايا، وفي الدورة الثانيّة حين صار ذلك الوجه مقابلاً له انتابته حيرةٌ خاطفة شغلت باله حتّى كاد يتلعثم في غناء قصيدته التي يحفظها عن ظهر قلب. أمّا ما دار في خاطر شهلا، فهو مزيجٌ من الشعور بالشفقة على قلبٍ ما زال نازفاً من جراح الحبّ، وحسدٌ لتلك الصبيّة التي استطاعت أن تستحوذ على قلب شابّ مثله، وتجعله غير قادر على نسيانها لسنوات، رغم كلّ القهر والمرار الذي ذاقه من أهلها وفَقدِه الأمل بها نهائياً.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

الحيرة الخاطفة التي انتابت أحمد حين لمح وجه شهلا في العرس، وجدها حين وصل إلى البيت على فراشه وسائدَ ملوّنةً بألوانٍ زاهية وجذّابة .

احتار على أيّ منها يضع رأسه الذي طار منه النوم فكلّما قلب وسادةً وجد وجهها الآخر أجمل، أخيراً قرّر أن يطفئ السراج وينام على مخدّته المعتادة ليتسنّى له أن يقلّب صورة الصبيّة الحلوة في رأسه وقلبه أكثر. وظلَّ لساعاتٍ ساهراً يحاول أن يجد تفسيراً لتلك اللحظة التي ضعضعت باله وفكره.

فهو يعرف شهلا ابنة خليل، لكنّه يعرفها طفلةً صغيرة ، أمّا أن تكبر بهذه السرعة فتجلس بين الصبايا وترمقه بهذه النظرة الممزوجة بين الإعجاب والفضول، وأن يتمكّن منه ذلك الوجه المشرق، فذلك لم يحسب له حساباً.

تململ النبض في صدره وتغيّرت وتيرته يشكو له هذا الفراغ المظلم الذي تركته حبيبته السابقة والذي لا زال يتمدّد ليضيّق على قلبه أكثر، تخيَّل أنّ تتمكّن تلك الظبية الجميلة من ولوج هذه العتمة فتشرق لها الشمس كي ترعى اخضرار حقوله الواسعة وتتقافز في أرجاء قلبه لتعيد له موسيقا الفرح.

مرّت الأيّام والأسابيع وطيف شهلا يرافق أحمد إلى الحقول، تمشي خلفه تلتقط السنابل التي أخطأتها يداه المرتبكتان تجمعها شمائل وتضعها فوق أغمار الحصاد التي سيحصلون على ربعها عند اقتسام محصول البيدر، وعند المساء يجد طيفها قد سبقه إلى الدار يستقبله بحبّ وفرح فيتخيّلها تطوف حوله باسمةً له، تنفض عن كاهله غبار تعبه في الحقول التي لا

يملكونها، وترضى بالقليل ممّا يكسبه حامدةً شاكرة، تفرش له صدر البيت وسائد محشوّة بالحبّ ليتّكئ عليها ويرتاح.

وحين يقبل إلى حصّته من الطعام التي تيسّر لأمه أن تحصّلها له من بين أيدي إخوته وتخبئها بعيداً عن الأفواه المفتوحة جوعاً مزمناً. كان يكتفي منها بالقليل، فإن طيف شهلا قد ملأ كيانه، وأشبع روحه الجائعة إلى رفيق يتقاسم معه ثقل حمله الكبير وهموم هذه الحياة البائسة، يدندن معه مواويل وعتابا لحظات الحبّ والسعادة القصيرة التي ترفرف فوق رأسه كطيرٍ جميل. وإذا آوى إلى فراشه ليلاً وجد النوم قد غادره ولم يتركْ خلفه أثراً، وحلّ محلّه جسد شهلا النحيل الذي شاهده في حلقة الدبكة يموج مع الصبايا بثوبٍ زهريّ طويل يتمايل كعود خيزرانٍ طريّ قُطف قبل الأوان، ويتخيل بياض الشمع يختبئ تحت صدر فستانها المكشكش. ويغمض عينيه على أحلامٍ خجولة من السعادة والمتعة...

قرّر أحمد ألّا يؤجّل محاولة جعل هذه الأحلام سعادة حقيقيّة حتى لا تنقلب إلى مرارة حرمانٍ تذوّقها من قبل. أخبر أمّه فجاوبته مستغربة - ابنة خليل؟ ابنَة خليل مخطوبة....

- نعم ابنة خليل، ولكن ليست الكبرى بل شهلا.

دهشت ام أحمد لسماع ذلك... وقالت مستغربةً أكثر:

-شهلاا؟ إنّها طفلةٌ يا أحمد...

- وأنا استغربت ذلك يا أمّي، وقد فوجئت بها في عرس ابن عمّي أنّها صارت صبيّة جميلة وستعجبك حتماً، ولكنّي أريد

أن أسمع موافقة أبيها قبل أن يعلم أحدٌ بهذا، ولا أريد أن أغرق في الأحلام و من ثمّ يخيب أملي مجدّداً.

ولم ينقضِ النهار حتى كانت أم أحمد وإحدى أخواتها يطرقن باب خليل طالباتٍ القرب منه وقلوبهنّ ترقص فرحاً أنّ أحمد نفض عن جفنيه غبار الزوبعة التي اجتاحته.

جُلّ ما فكّر فيه خليل هو أنّ بنتاً من بناته ستريحه من لقمة عيشها و قطعة قماشٍ تستر جسدها، و لم يكلّف نفسه حتّى أن يتساءل إن كان البيتُ الذي ستنتقل إليه ابنته سيضمن لها ذلك أم لا... المهمّ بالنسبة إليه هو أنّ أحمد شابٌّ محبوب ذو سمعةٍ حسنة يشهد له بها الجميع، ينتمي إلى عائلةٍ توافق عائلته بميولها التحزّبية، حيث كانت القرية آنذاك تنقسم إلى فريقين متصارعين على الدوام، فلا تلبث أن تهدأ الخلافات بين أهلها حول اقتسام الأراضي، أو المشاجرة مع عائلة الاقطاعي حتّى تثور مجدّداً، خلافاتٌ تتطوّر أحياناً لتصل إلى الضرب بالهراوات والحجارة وقد يذهب جرّاءها أرواح.

ولا بدّ أن ما تبادر إلى ذهن خليل حينها هو أنّ شهلا التي حفرت يوماً في نفسه أخدوداً عميقاً صعب الزوال جراء تعطّشه السابق إلى صبيّ، ستبتعد اليوم عن ناظره علّه ينسى ذاك الشعور المقيت الذي صاحبه فترة من الزمن. فأتت موافقته السريعة كعطاءٍ جزيل على نفس شهلا أوّلاً، ولأهل البيت جميعاً ثانياً، فإن والد البنت يبقى في ابتهالٍ وتوسّل دائمين إلى الله أن يبعث لابنته ذكراً آخر يحمل عنه راية الشرف الثقيلة ويتكفّل بمعيشتها، وما أن يحضر العريس حتّى تصبح موافقته كرماً وعطاءً. ولا تتردّد البنت وأمّها أبداً في

تقديم الشكر، فهنّ يعتبرنه موافقة ضمنيّة شديدة الصعوبة على نفسه أن يعطي الحقّ لابنته أن تحيا الحبّ وتمارسه.

احتارت شهلا الطفلة التي لم تكمل عامها الرابع عشر بعد كيف ستفتح باب القفص لعصفورها الحبيس وتطلقه خارج صدرها إلى حقلٍ يتماوج فيه الزهر والشجر أوّل أيّام الربيع، وتمنعه من أن يرفع صوت زقزقته عالياً أو يرفرف ملفتاً الأنظار فينفضح أمر فرحها أمام أهلها فيُخجلها، فذهبت إلى البيدر القريب لتتوارى فيه. غابت هناك ساعاتٍ طويلة لم تستطع خلالها أن تجمع إلّا حزمةً رفيعةً جدّاً من القصل الذي تتفنن يداها الصغيرتان في صنعه أطباقاً وأواني، تنقش عليها أجمل النقوش التي تتسابق في إنجازها مع رفيقاتها وأختيها. أمّا اليوم فوجه أحمد قد غطّى كلّ الصور، وصوته الحنون تمايلت له السنابل فهربت من بين أصابعها كالتراب الناعم،ولم تستطع أن تميز بين القشة النحيلة والممتلئة ،ركبت بخيالاتها الموج المتلاطم بلطف، وبعد أن ارتفعت معه ونزلت مرّاتٍ ومرّات قرّرت أخيراً أن تنزل إلى شاطئ الأمان، وتعود إلى الدار.

وما لبث أحمد بعد أن تردّد إلى بيت عمّه زياراتٍ قليلة وخجولة حتّى كسب محبّة أهل البيت جميعاً وخصوصاً خليل الذي وجد فيه رجلاً يُعتمد عليه في الأمور الصعبة والمواقف التي تحتاج إلى رجال حقيقيّين، فمنحه مساحةً صغيرة من الحريّة يتعرّف بها إلى شهلا بوجود الأهل، واتّفق مع أهله أن يكون العرس في موعد جني المحاصيل بعد سنة كاملة.

فأشرقت شمس أحمد مجدّداً وصارت صباحاته مواعيداً مع النشاط والسعادة، يستعجل الأيّام كي يصل إلى الفرح الموعود ويحلّق مع الأحلام الجميلة في فضاءٍ رحبٍ لا نهاية له، وانشغل بملء جرار العسل التي سيفتحها هو وشهلا في وقتٍ قريب، وحين يظهر له رجال الاقطاعيّ يأمرون وينهون يتشاغل بتقليب القشّ دون أن يرفع نظره إليهم، يفكّر بشهلا وضحكتها الساحرة ليصمّ آذانه عن صوتهم، وبعد أن يغادروا يبتلع في صدره هواءً ملوّثاً بالازدراء والقهر، ويتابع عمله. وتفتّحت الورود على وجنتي شهلا وفاح عطر الحبّ منهما، لمعت عيناها وامتلأ جسدها النحيل يتهيّأ لشريكٍ يتقاسم معه الحبّ، فإذا بها صبيّة خرجت من خدرها للتوّ تفيض أنوثةً ودلالاً، تجعل أحمد يزداد شغفاً بها يوماً بعد يوم.

لكن شبح الفقركان يومئ لها بسخريةٍ من على وجوه النسوة اللواتي يتفاجأن بنضوج جسدها وازدياد جمالها فيستكثرنها على خطيبها الفقير، إلّا أنّ هذا الشبح سرعان ما يتلاشى إذ تستحضر خيال أحمد بجماله وكلامه العذب.

.....

أطلّت شهلا كغزالةٍ شقراء من باب دارعمها حمدان حيث أرسلتها أمّها لتقترض بعضاً من الطحين. فإذا بشابٍّ غريب يجلس في صدر المضافة . فتنت بصره الصبية وجعلته يستفسرعنها ويبعث على الفورمع عمها رسالة لأبيها مفادها أنّ التاجر الضيف الذي ينحدر من احدى القرى ذات الخير الوفير و الغلال على استعدادٍ لإعادة المهر لخطيبها ودفع أضعافه لأبيها، طالبا الجواب قبل أن يغادر. فآتى وقع

الرسالة على خليل كمن ربح ورقة يانصيب ذات مبلغٍ باهظ ، نسيَ معها أحمد وأهل أحمد... وكما تبدّل الرعيان نعاجها أرسل الموافقة مع أخيه. حمل التاجر متاعه عائداً إلى قريته مبتهجاً. بربح يفوق كلّ ما كسبه من تجاراته السابقة مجتمعةً، على أن يعود بجاهةٍ تليق بالغزالة التي اصطادها اليوم، وبما يلزم لإتمام صفقته.

.....

في اليوم التالي ..لم ينتظر خليل إلى حين عودة أحمد من رحلته اليوميّة مع الشقاء في هجير الشمس حتّى يطلق إليه سهمه الحارق، فقد أرسل إلى أهله رسالةً فوريّة مع أخيه الأصغر فهد، يخبرهم أنّه فسخ الخطوبة، حين وصل الخبر إلى والد أحمد لم يؤخّر جهداً، بل أسرع في إحضار ابنه من الحقل لأمرٍ هامّ، وذلك قبل أن يتسرّب إليه الخبر من أحدٍ فيسقط مجدَّداً من شاهق، وتتفتّح جراحه التي بالكاد التأمت مؤخّراً.

ظنّ أحمد حين شاهد أخاه مقبلاً إليه أنّ أمّه قد أرسلت له بعضاً من اللّبن كي يُطفئ بها عطشه، كما تفعل عادةً، ولكنّه انتبه أنّ أخاه يركض نحوه خالي اليدين، فاستغرب الأمر وأسرع بسؤاله من بعيد بصوتٍ مرتفع عن سبب مجيئه إليه... ورمى من يديه شمائل السنابل عندما سمع من أخيه أنّ والده يريده لأمرٍ هامّ ومستعجَل .فأسرع الخطى وصار خياله يشطح في البعيد وهو يلهث خلفه مسرعاً، وأحسّ أنّ المسافةَ لن تنتهي أو أنّ الدار تهرب من أمامهم، وأفكاره تبعث له الكثير من الاحتمالات أوّلها الأسوأ ، إلى أن وصل أخيراً.

وقبل أن ينطق بحرف، نظر إلى أبيه الذي ترك عمله وقدم الى الدار على غير عادة، فوجد وجهه مكفهرّاً سأله:

-ما الأمر؟ ماذا حدث هل أصاب أحدكم مكروهٌ لا قدّر الله؟ أجابه أبوه:

-لا لا اطمئن لا شيء من هذا القبيل...

-إذاً؟ ما الذي يستدعي مجيئنا بهذه السرعة؟

-اهدأ يا ولدي واشرب شفّة ماءٍ تُطفئ عطشك أوّلاً.

وأمر ابنه الأصغر:

-هاتِ لأخيك شربة ماءٍ من الخابية بسرعة.

- شغلت بالي يا أبي ماذا هناك؟

وبعد أن شرب شفّةً صغيرة ردّ عليه والده بسؤالٍ جديد

- هل حصل أيّ خلافٍ بينك وبين خطيبتك وأهلها ولم تخبرنا به؟

- خلاف؟ بالعكس إنّه الوفاق التامّ، لِمَ هذا السؤال؟

- إذاً ما الذي جعل عمّك يرسل لنا أخاه فهد ليخبرنا أنّه فسخ الخطوبة؟؟

اضطربت دقّات قلب أحمد وصعد الدم إلى رأسه وخجل أن يُشعِر والده بخوفه من خسارة حبيبته، إلا أنّ الدهشة والمفاجأة فتحت عينيه ورفعت حاجبيه إلى أعلى جبينه، وقال:

- ما هذا الذي أسمعه؟ أأنت متأكّدٌ يا أبي؟

-أنا متأكّد يا ولدي نعم . وقد توقّعت منذ البداية أنّ مصاهرة خليل سوف تجلب لنا المتاعب، فإنّ تصرّفاته الغريبة والبيئة التي نشأ فيها لا تخفى على أحد من أهل القرية رغم أنّهم يتغنّون دوماً بأصلهم الذي ورثوه عن أجدادهم كعائلة عريقة وكبيرة العدد ومن ملّاكي الأراضي في القرية.

هوّن عليك يا ولدي فإنّ الحياة قسمةٌ ونصيب...

أنصت أحمد إلى والده إلى أن انتهى من كلامه وكانت أمّه تستمع للحديث معه، وقال:

- قسمةٌ ونصيب وقد آمنت بذلك ولكن أريد أن أعرف السبب.

-نعم يجب أن يُعرف السبب...

فتدخّلت أمّ أحمد في الحديث وقالت:

- هوّن عليك يا أحمد، الآن سنذهب أنا و خالتك أمّ صالح لنستطلع الأمر .

.....

أرسلت أمّ أحمد في طلب أختها أمّ صالح على الفور وانطلقت المرأتان ،أمّ صالح التي حملت اسم صالح لقباً ليس أكثر، وقد كتب الله لها ألّا تنجب صالح ولا غيره من الأولاد، فرضيت

هي وزوجها بنصيبهما وإرادة الله وعوّضت ما فاض في صدرها من عاطفة الأمومة بأبناء أختها وخصوصا أحمد .

مشت الأختان إلى دار خليل والدم يغلي في عروقهما والفضول لمعرفة سبب ما حدث يحثّهما على الإسراع أكثر. حين وصلتا كانت شهلا تجلس على مصطبةٍ أمام بيتهم غارقةً في إتمام جهازها المصنوع بمعظمه من القشّ ، تصنع منه أطباقاً تعلّق في صدر البيت، وأخرى تستعمل للطعام وقفَفاً مختلفة الأحجام تضع فيها العروس أشياءها الخاصّة وأدوات زينتها إن وجدت. رفعت رأسها حين سمعت صوت خطواتٍ تقترب مع همهمة صوت نسوة، فإذا بهم أهل خطيبها... وبرشاقة الغزلان رمت ما بين يديها من القشّ وقفزت نحوهما وضحكة الفرح تفتّحت على وجهها ، وعانقتهما بكلّ الحبّ الذي تخبّئه في صدرها لأحمد.

وبعد أن مرّت هذه البرهة من السعادة المفاجئة، لاحظت شيئاً غريباً في عيون تينك المرأتين، وبرودةً في السلام على أمّها وجدّتها، فبدأ وهج فرحتها يخبو شيئاً فشيئاً، جلست الضيفتان في صدر البيت وعلامات الاستغراب باديةً عليهما.أدركت أمّ صالح الأمر، أنّ شهلا وأمّها وجدّتها هنَّ آخر من يعلم بقرارات خليل فهي تعرف مزاجيّته وتصرّفاته الغريبة مع أهل بيته.

فبادرت فوراً بالسؤال عنه:

-أين أخي أبي فاضل؟

ردّت أم فاضل:

- لقد خرج منذ الصباح الباكر ولم يعد حتّى الآن، ماذا هناك؟

-هل أخبركم شيئاً بخصوص أحمد؟

- لا أبداً، هل من جديد؟

-الحقيقة يا أمّ فاضل، لقد وصلنا مرسالٌ من أبي فاضل يعلمنا أنّه قد فسخ خطوبة أحمد وشهلا، ونحن الآن نريد أن نعرف السبب، فإن كان قد حصل أيّ تقصير من ابننا أحمد فنحن على استعدادٍ لتداركه فوراً .فنحن نثمّن غالّياً مصاهرتكم ولنا عندكم عروسٌ لا نبدلها بكنوز الدنيا.

تدخّلت أم حامد وقد امتقع وجهها عند سماعها الخبر المفاجئ

- هكذا إذاً!

تابعت موجّهة كلامها لأم أحمد، طلبت منها أن تترك الأمر لها وستعرف ما ستفعل.

التفتت النسوة الأربع إلى شهلا فإذا بوجهها قد احتقن الدم فيه والدموع تلمع في عينيها ، قبّلتها أم أحمد وطمأنتها أنّهم سيعملون جميعاً ما بوسعهم لتصبح كنّةً لهم في القريب العاجل. أكّدت ذلك أختها أم صالح، وعادت المرأتان إلى الدار ترافقهما الحيرة والفضول.

لم ينتظر أحمد حتّى تقطعا المسافة الفاصلة بين الدارين فسار نحوهما وسؤالاً يحتمل الكثير من الأجوبة قد تلبّس وجهه، لكنّ الجواب الذي تلقّاه جعل الاحتمالات تزداد أكثر. فاستسلم لنار الحيرة والانتظار إلى الغد مجبوراً.

أمّا شهلا فقد أضرم الخبر النار في صدرها الذي تعوّد منذ الطفولة المبكرة أن تغلي بداخله مراجل القهر. وبعد أن خلا لها الجوّ مع أمّها وجدّتها انهالت بالدعاء على أبيها الظالم، متذكّرةً تصرّفاته وكرهه لها منذ صغرها، وها هو اليوم ينوي أن يفرّق بينها وبين أحمد وينغّص عليهافرحتهاالتي تنتظر.

حاولت أمّها تهدئتها لكنّها فشلت حين رأت في عيني ابنتها نظرة سخرية من ضعفها وخنوعها لزوجها، فقد ظنّت شهلا أنّ أمّها عجزت عمّا ستتمكّن هي من فعله في المستقبل مع أحمد، وما ستحصل عليه من حقوق لها بسلطة الحبّ والذكاء، فسكتت الأمّ وابتلعت الغصّة التي تكبر يوماً بعد يوم، وهمست لروحها المتعبة أنّ شهلا ما زالت طفلةً ولا تعرف الكثير.

أجهشت البنت في بكاءٍ مرير، فهرعت أم حامد احتضنتها ووعدتها قائلة:

- لن يحدث إلّا ما ترغبين به يا حبيبتي، دعينا نعود الآن إلى الحقل وننتظر إلى حين عودة أبيك فنعلم منه سبب فعلته هذه.

''''''''''''''''''''

حين غضّت الشمس طرفها عن القرية واتّجهت نحو الغرب رأفةً بأهلها كي يلتقطوا أنفاسهم ويخلدوا إلى بيوتهم ساعاتٍ قليلة، عاد الفلّاحون والرعيان من العمل في البراري وقد نال منهم الجوع والتعب،إلا أنّهم يتشاركون أهزوجة فرح خفيفة ، فتعلو أصوات هرجهم تداعب النسمات النقيّة التي تمسح عن وجوههم الغبار وفتات السنابل، يتبادلون النكات التي تشكّل رشفات فرحٍ تبلّل لقمة البؤس العالقة في مبلع كلّ منهم كي

تسمح بمرور الهواء إلى رئتيه ليواصل الحياة، فتعلو ضحكاتهم رغم الضنك.

وعادت معهم أمّ حامد وحفيدتاها في حلق كلّ منهنّ شوكةً تخِزها حين تتذكّر خليل الذي سمح لنفسه بأن يدفعهنّ إلى هذا المعترك بينما هويتجوّل متسكّعاً، يعود إلى البيت غاضباً جاهزاً للانفجار في وجوههنّ كقنبلةٍ موقوتةٍ لأتفه الأسباب.

وصلت الجدّة وحفيدتاهاوغسلنَّ وجوههنّ وأيّاديهنّ بحفنة ماءٍ مسكوبةٍ في قعروعاء مسطح من النحاس يجب أن تكفي لهنّ الثلاثة، وقطعة صابونٍ صغيرة على أهل البيت أن لا يتمادوا كثيراً في استنباط رغوتها كي تكفيهم فترة أطول. جلس الجميع على البساط الأسود المصنوع من شعر الماعز، غير آبهين بخشونته وكأنّ خيوطه قدّت من أشواك الحقل، فهو يظلّ أرحم من الجلوس على أرض البيت الممدودة بالطين،تعفّر بالتراب الناعم كلّ من يدوسها.

أحضرت أم فاضل الطعام... طنجرة مجدّرة ساخنة وطاسة من اللّبن وأرغفة الخبز السمراء.

أقبل الجميع للعشاء ومعهم شهلا فصوت عصافير بطنها ورائحة الطعام الشهيّة جعلاها تنسى للحظاتٍ ما حصل اليوم. قطعت لقمةً من رغيف الخبز وألقتها فوق حبّات البرغل والعدس وغرفت منها ما اتّسعت اللقمة، وقبل أن تضعها في فمها وإذا بأبيها يدلف من الباب . تذكّرت حين رأته أيّ أمرٍ قهرها به اليوم ، فما كان منها إلّا أن رمت اللقمة على الطبقِ وغادرت الغرفة دون أن تنظر في وجهه، نادتها جدّتها:

- اكملي طعامك يا شهلا ولكنّها لم ترد ...

ألقى خليل التحيّة على أهل البيت وسأل:

-ما بها شهلا لماذا تركت طعامها؟

تشاغلت أم فاضل بإطعام أطفالها الصغار فهي لا تجرؤ أن ترفع وجهها بوجه زوجها لتُبدي له غضبها من أيّ أمر

أمّا أم حامد فقد نظرت إليه نظرة استياءٍ وقالت:

- لا عليك إنّه دلع بنات، هيّا إلى الطعام قبل أن يبرد.

مدّ يده مطلقاً العنان لوحش الجوع النائم بداخله الذي أيقظته رائحة الطعام ومن دون أن يكترث لزعل أحد . تناول طعامه كاملاً وحمد ربّه دون أن يفكر بمن حوَّل حبّة الحنطة إلى رغيفٍ يملأ بطنه.

حين انتهى الجميع من الطعام حملت أم فاضل طبق القشّ بما بقي عليه من طعام قليل وذهبت به إلى شهلا التي انزوت في ظلام غرفة الكراكيب، أضاءت لها سراجاً ورجتها أن تأكل طعامها، وعادت إلى أطفالها...

وقبل أن يطلب خليل من أم حامد أن تذهب للنوم مع حفيداتها لأنّ النعاس قد غلبه ويريد أن ينام، بادرته بالسؤال:

-ما هذا الذي سمعناه اليوم يا أبا فاضل؟

- ماذا سمعتم؟

- سمعنا أنّك فسخت خطوبة شهلا وأحمد وأرسلت من يخبر أهل أحمد بذلك؟

- نعم قد فعلت

- وهل لك أن تخبرنا عن السبب؟

- لا... لا أريد، هي ابنتي وأنا حرٌّ بها وليس لأحدٍ سُلطةٌ عليّ بذلك...

-هي ابنتك أكيد، ولكن هل نسيت الوعد الذي أعطيته للرجال

استشاط خليل غضباً فقد شعر بوخزةٍ حين وضعت أم حامد إصبعها على ندبة الرجولة المنتقصة المزمنة والتي تعرف مكانها تماماً.

- تعلمين أنّي رجلٌ والجميع يشهد لي بذلك ، كما وتعلمين أيضاً أنّني وافقت على خطبة شهلا لأحمد دون أن أسال عن رأي أهلي، وهذه الموافقة كانت غلطتي التي أريد أن أصحّحها الآن....

-وممّا يشكو أحمد يا خليل، فقد أعجبت أنت برجولته وأخلاقه وقد شعرنا جميعاً بمحبّتك له فما الذي تغيّر اليوم؟

-هذا وحده لا يكفي، فأحمد ابن عائلةٍ فقيرة وأبوه يشتغل مرابع وهذا لا يتناسب مع وضع عائلتنا.

- ضع الله أمام عينيك يا خليل، كلّنا فقراءٌ على باب الله وستُفرج علينا جميعاً يوماً ما،والرجل لا تصنعه أملاكه وأراضيه بل تصنعه أخلاقه وشهامته. وخبأت أمّ حامد جملة

معاملته لأهل بيته تحت لسانها كي لا تثير حفيظة خليل وتابعت:

-انظر إلى هذا الإقطاعيّ،أنت وغيرك يعلم خسّته ودناءة أخلاقه مع كل ما يمتلكه من أرض ومال

أنصت خليل إلى كلام أمّ حامد كاملاً فهو برغم من كلّ ما يعانيه من صعوبة بالطباع والمراس إلّا أنّه كان يحبّها ويعلم أنّها مرساة الأمان لأولاده وبيته بحكمتها وحنانها. وحين انتهت من كلامها أجابها بلهجة طفلٍ أفسده الدلال:

- قلت لك أنّي حرٌّ بابنتي ولا أريد نقاشاً، وقد خطبها منّي التاجر الذي ينزل عادةً عند أخي حمدان وقد وعدته وأعطيته كلمةً، ولا أريد نقاشاً في هذا الأمر.

ذُهلت أم حامد لما سمعت وفتحت عينيها على وسعهما واحمرَّ وجهها غضباً واستغراباً شديدين، وقالت:

- توقّعت منك كلّ شيء يا خليل إلّا أن تُخَطّب ابنتك لرجلين معاً فهذا ما لم يخطر لي على بال أبداً.

كلّ هذا الجدال وأمّ فاضل واجمةً عن أيّ حرف، متمسّكة بوصيّة أمّها الدائمة حين تريد أن تناقش خليل في أمرٍ ما، لكنَّ شدّة المفاجأة جعلتها ترفع صوتَها قائلةً:

- كيف يمكن لك أن تفعل هذا يا خليل، ماذا سيقول عنك الناس حين يعلمون بفعلتك هذه؟؟

فإذا بصوتها يأتيه وكأنّها رمت له حبل النجاة من الحفرة التي أوقعته بها أم حامد، فما كان منه إلا أنّ أنهى الجدال بما خجل من قوله لأمّ حامد فأفرغه بوجه ابنتها بأن أخرسها وانهال عليها بالشتائم واللّعنات وأغلق الباب عن أيّ كلام مصرّاً على صحّة فعلته.

ثم وضع رأسه على المخدّة ومدّد جسده معلناً أنّه يريد النوم .

.....

مخدّة أحمد البيضاء المحشوّة أحلاماً سريّة، وجدها هذه الليلة مليئة بالأشواك التي تدمي يديه أثناء الحصاد، فعجز أن يضع رأسه عليها بعد أن كانت تهدهد له كي ينام على هديل ضحكات شهلا العالقة في مسامعه والتي تذكّره بحمائم الدار التي نصب لها مخابئَ من التنك الفارغ والجرار المعدنيّة القديمة فوق الأبواب والشبابيك.

نهض من فراشه وخرج ، قاده الأرق ليتمشّى أمام باب المضافة العالية وصار خياله يشطح تحت ضوء القمر ليصل إلى دار عمّه خليل المطلّة عليه من بعيد، يطرق بابه ويسأله عن سبب قراره المفاجئ الذي حيّر عقله. فبالأمس بعد أن عادوا جميعاً من الحصاد وأخذوا قسطاً من الراحة استقبله عمّه ورحّب بزيارته وقابلته حماته وأمّها ببشاشةٍ، وكانت شهلا تسترق عن أبيها نظراتٍ وابتسامات لأحمد تخبره أن السعادة قد ألبست ذراعيها جناحين تستطيع معهما التحليق فوق رؤوسهم حتّى تلامس قنطرة سقف البيت...طلبت منها جدّتها أن تفتح هديّة أحمد التي قدم يحملها بيده الملفوفة بكيس

من أكياس الدكان الوحيد في القرية،قامت شهلا بفتح الكيس وعلَت وجهها ابتسامة اعتزازٍ بخطيبها الكريم، مدّت يدها إلى طبق القشّ المعلّق على الجدار، والذي صنعته خصّيصاً للضيافة ونقشت عليه غزلاناً تتلفّت بعيونٍ واسعة كأنّها ترسم صورتها والتفاتة عينيها الحالمتين بالفرح.وضعتعليهحلوى البسكويت والراحة المحبّبة للجميع، ووزّعتها، فناولت والدها أوّلا، ومن ثمّ ناولت أختها الصغيرة قطعةً وأومأت إليها بخجلٍ أن تناولها للضيف إلّا أنّ أحمد تمنّع عنها ممازحاً :

فردّ عليه عمّه:

-أنت صرت فرداً من البيت يا أحمد.

وقد كان يعني ذلك فعلاً فقد فرض عليه أحمد ذلك بدماثة خلقه واحترامه له. و جعله يتّخذ منه سنده القوي وقد عزّز هذا الشعور لدى خليل حماس أحمد وحميّته الشديدين لأهله وحزبه القروي. وكانت زياراته أشبه بكرنفالاتٍ بسيطةٍ من البهجة، بوجهه البشوش واعتداده بنفسه إضافةً إلى خفّة دمه التي يلاطف بها أخوات شهلا وإخوتها الصغار ممازحاً تارةً وجادّاً تارةً أخرى. بينما كان الصهر الأكبر غير مبالٍ بأيّ أمرٍ خارج العمل في الحقل وزيارة خطيبته بين الحين والآخر، زياراتٍ لا تحرّك ساكناً في نفس عمّه و بيته ولا حتّى في قلب خطيبته. كلّ ذلك أيقظ في نفس أختها الكبرى الإحساس بالغيرة واختلجت بداخلها موجة حسدٍ خفيفةٍ لم تستطع منعها من أن تطفو على وجهها زبداً غامق اللون عكّر ملامحها وعينيها، بيد أنّ محبّتها لأختها كانت منديلاً رطباً تمسح به هذا الزبد عن قلبها قبل وجهها فشهلا رفيقة درب الشقاء الذي مهدّتاه معاً

بأصابعهما الطرية والصغيرة فامتزجت روحاهما مع كلّ دفعة حجرٍ ثقيلٍ تمكّنتا من إزاحته معاً.

وهزّت كرنفالات أحمد الخفيفة في أعماق شهلا قارورة عطرٍ فاح عبيرها وأنعش روحها، واختلط بأنفاسها فازداد نشاطها وإقبالها وتعلّقت به خلال أشهرٍ قليلةٍ حتّى أحسّت أنّه مبعث الحياة في روحها وجسدها، وصارت تعدّ الأيّام والشهور حتّى يأتي موسم جني المحاصيل ليضمهما بيت واحد.

كلّ هذه المشاعر والذكريات تسابقت إلى رأس أحمد كأمواجٍ مضطربةٍ من الحيرة، فاضطربت معها خطواته وشعرت بها أم صالح التي بقيت بجانب أمّه تحسّباً للأرق الذي سيحلّ عليهم هذه الليلة. كانت أم صالح تقرأ أفكاره وتشعر بقربه منها حيث تربط بينهما نقاطٌ مشتركةٌ ومتشابهةٌ وأعمارٌ متقاربةٌ أكثر من أمّه المنشغلة عنه في رعاية أسرتها الكبيرة، فنهضت من فراشها ،فتحت الباب بلطفٍ وخرجت، صعدت الدرج الواصل إلى المضافة وقبل أن تصل إليه نادته بصوتٍ هادئ، وحين أطلَّ نحوها دعته أن ينزل ليجلس معها.

جلسا معاً تحت شجرة التوت ذات الأغصان المتفرّقة، يداعبها نسيم الليل فيسمح لضوء القمر أن ينير المكان نوراً خافتاً للحظاتٍ تتلاقى فيها عيونهما، ثم يعود ويحجب النور لحظاتٍ أخرى.

دار الحديث بينهما عن قرار عمّه المفاجئ وعن الحيرة التي انتابتهم جميعاً وتساءلا عن الأسباب المتوقّعة دون أن يخطر لهما أن يكون شخصٌ جديدٌ قد دخل على الخطّ، فالقرية صغيرةٌ والناس تعرف بعضها بعضاً كأفراد البيت الواحد، ولا

يجرؤ أحدٌ من شبابها على الاقتراب من عروسه، إلّا أن يكون من الحلف الآخر الذي لن يقبل خليل به أبداً.

هوّنت عليه الأمر خالته حين قالت:

- إنّ خليل شخصٌ مزاجيٌّ يبدّل رأيه وكلامه بسهولةٍ فقد يكون السبب تافهاً ومقدوراً عليه فيعود عن قراره، وعندها أعدك بأنّنا سنسرع قدر الإمكان بالعرس، حيث سأساهم بقسط كبير من التكاليف من مالي الخاصّ الذي خبّأته للأيّام السود من عملي في حياكة البسط والسجاد.

ثمّ طلبت منه أن يعود ويحاول النوم كي يستطيع أن يلتحق بعمله في الحصاد صباحاً، وأن يسلّم أمره لله، فعاد كلٌّ منهما إلى فراشه يعدّ أنفاس الليل المتناقصة في انتظار رحيله عسى أن يأخذ معه حمل الحيرة الثقيل.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

وضعت أم حامد كفّيها الخشنتين على البساط ورفعت جسدها كي تتمكّن من الوقوف، وقد تدلّت شفتاها السمراوان الغليظتان اللتان ورثتهما عن أبيها الفلسطينيّ تتمتمان التوسّلات إلى الله الذي لا يتمّ أمرٌ إلّا بإذنه. وقفت ثم جرّت قدميها بعد أن سمع من بالغرفة صوت فرقعة ركبتيها، فقد أنهك التعب جسدها وكاد أن يهدّ قواها إلّا أنّها ما زالت تغالبه وقد قاربت الستين من العمر.

ستّون عاماً لم تعرف فيهم للسعادة طعماً إلّا تلك السنوات القليلة مع زوجها والد ابنتها، ابن خالها السوري الذي جلبها

عروساً من فلسطين ثمّ ما لبث أن تركها هي وطفلتها ورحل إلى جوار ربّه قبل أن يزهر ربيعها. فعاشت عمرها كلّه شجرةً غريبة المنبت في أرضٍ قاحلةٍ يزداد جذعها قساوةً كلّما هبّت عاصفةٌ جديدةٌ، إلّا أنّ احتلال فلسطين والحؤول بينها وبين أهلها كانت العاصفة التي كادت أن تقصم جذعها.

جعلت ام حامد من ابنتها ربيعها الأخضر وزهرتها الندية إلى أن أتى خليل بيديه العابثتين محاولاً ثنيَ أغصانها.

كان خليل يتمتّع ببنيةٍ قويّةٍ وجسدٍ معافى وطلّةٍ بهيّةٍ توحي برجولةٍ ووقار. وقد ورث عن أبيه مساحة لا بأس بها من الأرض إن قام على زراعتها ستكفيه هو وأسرته شرّ العوز والجوع وقد اعتقدت أم حامد أنها ستستطيع بحكمتها وحنانها أن تجعل منه ولداً وسنداً قويّاً لها ولابنتها، إلّا أنّها اضطرّت مع الأيّام أن تكون هي الحامي والسند الوحيد لابنتها وأحفادها، تزرع أرضه وتربّي عدداً قليلاً من النعاج لتطعم أولاده، تصنع من صوفها كلّ ما في بيته من فرشاتٍ ولحفٍ، ولم تتوانَ عن تصنيعها إن طلب منها أحدٌ ذلك لقاء بعض مكاييلٍ من الحبوب التي تساهم في إطعام أحفادها، وما على خليل إلّا إنجاب الأولاد وفرض الأوامر وتذكيرها على الدوام أنّها وابنتها تزرعان الأرض التي ورثها عن أهله وتأكلان من خيراتها، وأنّ زوجها كان مرابعاً لا يملك إلّا بيتاً صغيراً كانت أم حامد تأوي إليه حين تفيض حنقاً من خليل إلّا أنّها لا تلبث أن تعود لتُعين ابنتها وأحفادها على شقائهم معه.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

وقبل أن تضيء أم حامد السراج الزيتيّ المُعَدّ للتنقّل على ضَوئه الخافت من مكانٍ لآخر وتخرج من باب الغرفة، كان صوت شخير خليل قد بدأ يعلو ويتصاعد، دخلت إلى الغرفة المجاورة حيث تنام هي وحفيداتها، اقتربت حيث نامت البنات على الأرض بعد أن مددن فوق البساط العتيق الممزّق فرشاتٍ متلاصقة بالكاد اتّسعت لهنّ الأربعة، ألقت ضوء السراج نحو وجوه البنات حين سمعت نشيجاً خافتاً، فإذا بشهلا تقلّب رأسها على مخدّتها المبلّلة بالدموع وصوت نشيجها يعلو قليلاً ثم ينخفض خشية أن يصل إلى مسامع أبيها، وضعت الجدّة السراج جانباً وركعت على ركبتيها واقتربت منها، جسّت لها جبينها فإذا به ساخنٌ كأنّ العرق الذي يبلّله قد نزل توّاً عن النار، تحرك رأسها على المخدّة يميناً ويساراً ووجهها محمرٌّ كما الجمر، نادتها بصوتٍ خفيف:

- شهلا... شهلا... ما بك يا حبيبتي بِمَ تشعرين؟

جاوبتها البنت بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

-رأسي... رأسي يا جدّتي تكاد أن تنفجر... طلبت منها جدّتها أن تحاول الجلوس، وعندما رفعت شهلا رأسها وكتفيها وإذ بها تفرغ من فمها كلّ ما كان يجيش بمعدتها من طعام...ساعدتها أم حامد وقامت هي وحفيدتها الأكبر بتحضير مغلي الماء والنعناع على نار الموقدة التي مازالت تتوهج فيها جمرات صغيرة ثمّ طلبت منها أن تعود للنوم وقالت:

- وعدتك يا شهلا وأنت تعرفين جدّتك أم حامد حين تعدك بأمر.

ولمّا لاح الفجر معلناً وقت النهوض إلى العمل كانت أم حامد لاتزال تتقلّب على فراشها مشغولة الفكر تبحث عن طريقةٍ تمكّنها من ليِّ عنق خليل وإفساد خطته، وتنصت بين لحظةٍ وأخرى إلى صوت تنهيدات شهلا، يعلن أنّ النوم لم يقترب من جفنيها بعد.

جلست في فراشها وفكّرت أن تذهب وحدها إلى الحصاد وتعفي حفيدتيها منه هذا الصباح بعد هذه الليلة المريرة ، إلّا أنها تراجعت عن ذلك على الفور كي لا تتركهما حجّة لخليل لاختلاق الشجار معهما، فهمست لهنّ هيّا يا بنات إلى العمل، ردّت شهلا بصوتها المخنوق:

-اتركيني هنا يا جدّتي فلست قادرةً على النهوض.

-لا يا ابنتي لن أتركك هنا بوجه هذا الظالم، هيّا استجمعي قواك وسترين كيف سينشرح صدرك الآن حين تملئينه هواءً نقيّاً، وستنشغلين عمّا أنت فيه من قهرٍ.

نهضت البنتان بتثاقلٍ والتثاؤب يلازمهما ومسحتا وجهيهما بكفوفهما، و لبست كُلّ منهما فوق ثياب منامتها ثوب العمل المعلّق على وتدٍ مغروزٍ في الجدار، يكفي أن تخلعه عند العودة وتنفض عنه الغبار والقشّ، ولفّت كل منهما رأسها بمنديلٍ أبيضٍ عتيق، ومَشيتا بجانب جدّتهما وكأنّ النعاس كيسٌ ثقيلٌ مملوءٌ بالحصى معلّقٌ في ثوب كلٍّ منهما ومثقوبٌ من

إحدى زواياه ، تسحبه خلفها ببطء ليتناقص وزنه رويداً رويداً ويرسم طريق الشقاء.

وصل الفجر يفرد على منافذ القرية نسائمَ لطيفةً محمّلةً بالندى من بين طيّات ستائره الرمادية، فيغسل النعاس عن وجوه الفلّاحين ويتغلغل في صدورهم فتمتزج أنفاسهم بعبق الحيويّة والنشاط، شعرت شهلا وكأنّ هذه النسيمات ريحٌ من هبوب الشتاء البارد على جسدها الذي أنهكه السهر والقهر، فأجلستها جدّتها على حجرٍ قريبٍ ولفّت لها كتفيها بشماغها الذي لا يفارقها صيفاً ولاً شتاءً ودَعتها أن تنتظر وصول أوّل موكبٍ من المواكب التي تتقدّم الشمس عسى أن تدفّئ لها روحها قبل جسدها، ومن ثمّ مدت ساعديها لتبدأ الحصاد برفقة حفيدتها الكبرى، وكانت مع كلّ طيّةٍ كفٍّ تلفّها على شمائل السنابل تلفّ الأفكار في رأسها باحثةً عن مخرجٍ من هذا المأزق الذي وضعهنّ به خليل.

فكّرت بأحمد وما ستكون ردّة فعله حين يعلم أنّ والد عروسه قد وعد بها رجلاً آخر، وماذا ستخبر أهله... أباه... أمّه... أم صالح...

وحين لمعت في بالها صورة أمّ صالح، هبّت واقفةً على الفور وكأنّها تريد أن تمسك بالفكرة قبل أن تفلت منها، طلبت من شهلا أن تنهض لتحرّك الدم الساكن في عروقها وأن تناولها شماغها. لفّته على رأسها فوق المنديل وسارت بخطواتٍ كبيرةٍ ناسيةً معها وجع مفاصلها وركبتيها تفتّتُ التراب وبقايا الحصاد تحت قدميها، تنفض ما يعلق بثوبها من أشواكٍ بسرعةٍ ونظرها معلّقٌ نحو حقول أبي صالح، قطعتِ الحقول

الفاصلة بينها وبينهم بسرعةٍ وهي ترمي السلام على الحصّادين دون أن تلتفت إليهم، وبهمّة محاربٍ، تتجاوز حيطان الحجر الواطئة التي تفصل بين الحقول، تبحث عن فجوةٍ فيها تختصر معها الجهد والوقت إلى أن وصلت لاهثةً متعبة، استقبلتها أمّ صالح مرحبّة بعد أن رمت غمر السنابل الذي كانت تجمعه فوق الكومة الكبيرة.

وبعد السلام المعتاد، وبعيداً عن مسامع أبي صالح ، أخبرتها عن فعلة خليل الذي نكث وعداً قطعه معهم طمعاً بالمال، وعن ليلة شهلا السوداء ، وطلبت منها مساعدتها بحكمتها المعهودة على إيجاد حلٍّ. فكرت أم صالح قليلاً ثم طلبت منها أن تعود على الفورلتحضر شهلا معها وتلاقيانها في دارها على وجه السرعة وأنها تعرف كيف و بأيّ يدٍ سوف تلوي عنق خليل.

عادت أمّ حامد ، تذرع المسافات بين الحقول يحثّ خطاها خوفها من أن تبتعد إحدى حفيداتها عنهم بزواجها من شخص من خارج القرية فهي متأكدة من أنّه إن حدث ذلك فستنقطع أخبارحفيدتها وكأنها صارت في المنفى.

.....

دخلت شهلا وجدّتها الدار ونظرت أمّ حامد في وجه أمّ صالح مستفسرةً عمّا يدور في بالها، حيث كانت بانتظارهما

ربّتت أمّ صالح على كتف شهلا وقالت:

-اسمعيني جيّداً يا ابنتي... أريدك أن تكوني شجاعةً .

الآن ستسرعين إلى بيت شيخنا أبي محمود، تخبريه عن والدك دون خجل، عن ظلمه لكُنّ وعمّا ينوي فعله بشأنك أنت وأحمد.

ارتجفت شهلا ونظرت إلى جدّتها، فرأت علامات الترحيب بالفكرة على وجهها وسألتها:

-أنا سأفعل ذلك يا جدّتي؟؟

- نعم يا ابنتي، فإنّ وقع كلامك على الشيخ سيكون مؤثّراً أكثر وهو لن يتصرّف بهذا الأمر حتّى يسمعه منك أنت بالذات.

-وهل سأذهب وحدي؟

قالت شهلا متلعثمةً وقد اصفرّ وجهها خوفاً وخجلاً.

أجابت أم صالح:

- نعم وحدك، ونحن سننتظرك هنا، لا أريد أن يعلم أحدٌ أنّنا من دفع بك إلى ذلك.

وافقت شهلا وهي تسمع دقّات قلبها بأذنيها فقد خجلت من الوقوف أمام شيخٍ كبير السن والهيبة مثل أبي محمود، وخافت من ردّة فعل أبيها. لكنّ أم صالح طمأنتها وأكّدت لها بأن الأمرسيكون سرّاً.

سارت شهلا بخطواتٍ مرتبكةٍ وسريعة، تطأطئ رأسها وعنقها وكأنّها تريد أن تخبّئ وجهها عن أنظار المارّة القلائل من حولها كي لا تبوح عيناها بما هي مقدمةٌ عليه.

وصلت إلى دار الشيخ فوجدت البوّابة مفتوحةً، حمدت ربّها لأن الاختباء عن العيون سيكون أسرع وعندما أقبلت نحو البيت فوجئت بها أم محمود، وقبل أن ترمي عليها شهلا تحيّة الصباح قالت:

- شهلا؟ تفضّلي يا ابنتي كفى الله شرّك ماذا هنالك؟

ردّت شهلا بصوتٍ مرتجف:

- أريد أن أرى عمّي أبا محمود.

ردّت المرأة مستغربة:

-أنتِ؟

- نعم أنا

-تعالي معي عمّك أبو محمود في المضافة.

دخلت شهلا من باب المضافة ودخلت معها أم محمود،حين لاحظت ارتباكها وخجلها ظنّت أنّ البنت تقع في ورطةٍ وتريد أن تحتمي عندهم خوفاً من عقابٍ شديد. وأعلنت في قرارة نفسها أنّ شهلا مخطوبةٌ لشابٍّ يعتبر غريباً كونه من غيرعائلتهم، وتساءلت هل يكون قد حدث بينهما أمرٌ يغضب الله ويجلب العار لعائلتنا؟ فلم يطاوعها فضولها وخوفها من الفضيحة التي ستحلّ بهم على الخروج قبل أن تعرف الأمر.

ألقت شهلا تحيّة الصباح على الشيخ بصوتٍ خافتٍ وخجول، فردّ عليها التحيّة وقال:

-تفضّلي يا ابنتي أنت ابنة خليل على ما أعتقد!

-نعم يا عمّي...

-اجلسي، هل تحبّذين أن تخرج عمّتك أمّ محمود لنتحدّث على انفراد؟

ردّت شهلا بكل ما أوتيت من صدقٍ وبراءةٍ وبالذلّ الذي أدمع عينيها:

-لا يا عمّي فعمّتي أمّ محمود بمثابة والدتي...

بيد أنّ سهام دموعها وردّها المتودّد لم يستطيعا اختراق حاجز الظن الذي وضعه إبليس أمام قلب أم محمود والذي ازداد قساوةً حين شعرت أنّ هذه البنت يمكن أن تكون على درجةٍ من الوقاحة تمكّنها من البوح بفعلتها المشينة أمامها دون خجل... ولا شكّ أنّ إبليس الخامد في صدر أبي محمود قد نشط الآن وبدأ يتململ، إلّا أنّه تمكّن من ترويضه وإسكاته بحكم مهمّته الروحانيّة التي أوكلها إليه أقاربه من بعد الله، فردّ قائلاً:

- تفضّلي يا ابنتي ماذا هناك؟

ألقت شهلا جانباً من جسدها على المقعد الحجري المغطى بفراش رقيق، معلنةً أنّ جلوسها لن يطول كثيراً ولكنّها فعلت ذلك تحاشياً لانهيار جسدها المنهك والذي يكاد يسقط من شدّة الانفعال والخجل، وردّت باكية:

-قد جئتك يا عمّي أشكو لك أبي.

-أبوكِ؟ ماذا فعل مجدّداً؟

انفجر بركان شهلا الذي يغلي بداخلها مرّة أخرى وأخذت حممه تتقاذف فيخرج الكلام على لسانها متلاحقاً بصوتٍ أقوى يزعزع السكون الذي يحلّ على المكان.

أنصتا لها محاولَين بين الفينة والأخرى تهدئتها عن البكاء. ناولتها أمّ محمود خرقةً كانت معلّقةً بعروة ثوبها كي تجفّف دموعها. أخذتها منها شهلا وظلّت مسترسلةً في السرد عن أفعال أبيها، عن ظلمه لهنّ ولأمهنّ وكيف يمضي أيّامه مرتاحاً يتسكّع ويدفع بها وأختها إلى أعمال الأرض والحصاد ولا يتورّع أن يجبرهنّ على السير خلف محراث الفلاحة رغم أنّ ذلك من أصعب الأعمال وأكثرها شقاءً ويفوق طاقتهنّ بكثير، وأنهنّ يفعلن ذلك مع جدّتهنّ أم حامد دون أن يتجرّأن على الاعتراض. وقد وصل به الأمر اليوم أنه يريد أن يفسخ خطبتها على أحمد ليزوّجها من شخصٍ غريبٍ عن القرية طمعاً بالمال، دون أن يسأل عن رأيها كما فعل يوم وافق على خطبتها لأحمد وكانت قد رضيت بنصيبها الذي اختاره لها وصار بينها وبين خطيبها وفاقٌ وقبول. وأنّها ترفض الآن الزواج من شخصٍ غريبٍ من قريةٍ بعيدةٍ عن أهلها.

وحين انتهت من فورتها وهدأت، حمدَ أبو محمود الله في سرّه، ووعدها أنه سيتصرّف وما عليها إلّا الهدوء والعودة إلى دار أبيها.

وانفرجت أسارير أم محمود بعد أن ضربت إبليسها ضربةً قويةً على رأسه فعاد للسكون.

وارتاحت شهلا حين أحسّت أن حجراً ثقيلاً انزاح عن صدرها، فهذه الشكاوى عن والدها طالما شغلت أفكارها ومنعتها من النوم ليالٍ طويلةٍ، تردّدها بداخلها تعدّها وتعيدها، وتتمنى أن تبوح بها لأحدٍ كي ترتاح، وكم تخيّلت في طفولتها أنّ الله رجلٌ قوي يجلس في السماء، تقف أمامه باكيةً تشكو له، كما فعلت اليوم إذ شعرت أنّ هذا الشيخ هو الوسيط بينها وبين الله وأنّها بعثت معه رسالةً اختصرت فيها كلّ الظلم الذي تعرّضت له مذ فتحت عينيها على الدنيا.

خرجت من المضافة وقبل أن تصل إلى البوّابة ، مرّت على خابية الفخّار الكبيرة الكائنة في فناء الدار، غرفت قليلاً من الماء شربت شفّةً تبلّل ريقها الذي جفّفه البكاء، فأحسّت برشفة الماء الباردة التي نزلت إلى أحشائها قد غسلت معها بقايا الرماد والجمر العالق في حلقها، حتّى صارت ماءً يغلي لن يبرد حتّى تعرف ما ستؤول إليه الأمور مع أبيها . ثمّ مسحت عينيها بذيل منديلها وأمسكت بكمّها، فركت وجهها قليلا لتزيح عنه آثار انفعالها فلا يلاحظه أحد المارّة على طريق العودة، وتذكّرت أنّه عليها الإسراع قبل أن يخرج أبيها من البيت ويلتقيها مصادفةً، فودّعت عمّتها أم محمود وانطلقت بخطىً مسرعة.

كانت المرأتان بانتظارها، وبعد أن سمعتا منها ما جرى عُدنَ الثلاثة إلى الحصاد والهواجس تتحكم في خطواتهن ام صالح انتصبت بقامتها ورفعت رأسها للأعلى استنشقت جرعة هواء كبيرة ملأت رئتيها ووعدت نفسها بالنصرٍ،وشماتةٍ بخليل وانصياعٍ يرد عليه قهرهم وحيرتهم . أم حامدٍ راحت

تجر قدميها ونظرها معلقٌ في الأرض تحبس دموعها عن مشهد الزلزال القادم الذي سيهز البيت، وأما شهلا فقد طارت الى الحقل بخفة عصفورة تتخيل أحمد يدخل بيتهم بوجهه الباسم . إلّا أنّ جناحيها ما لبثا أن صارا قشّاً يابساً سقطت معهما على الأرض حين رأت الرعب والخوف اللّذين تملّكا وجه أختها إذ أخبرتها بما فعلت هي وجدّتها. تبعتها أم حامد إلى الحقل وصوت خليل يلعلع في أذنيها يقطعه صوت ابنتها تستغيث بها كي تمنع خليل من ضربها، تراه يصبّ سيل غضبه الجارف على بناته وعليها إن اقتربت منه محاولةً إبعاده عنهنّ، تسارعت دقّات قلبها أكثر فأسرعت الخطوَ وارتفع صوت همسها في أذن الفضاء تناجي ربّها أن يزيح هذه الغيمة السوداء عنهن.

هدّأت من روع البنتين حين شاهدت الخوف الذي سيطر عليهما وأوقفهما عن العمل متمالكةً نفسها عن النحيب، وتناولت الصرّة التي وضعتها بجانب حجرٍ كبيرٍ،ودَعت البنتين إلى تناول طعامهنّ.

أمسكت بقربةٍ وضعتها على فمها فسال الماء يبلّل شفتيها اليابستين عطشاً وتعباً وقهر.

.....

نادراً ما يخرج الشيخ أبو محمود من بيته إلّا إلى بيت العبادة.

فقد كان يمضي أيامه في خلوته لممارسة طقوس العبادة ونسخ الكتب الدينيّة وحلّ مشاكل وخلافات من يلجأ إليه من أهل القرية. يعيش زاهداً هو وزوجته من حصّته التي يسمح له بها

إخوته من إنتاج أراضيهم التي ورثوها عن أجدادهم. ولم يُرزق الأولاد وما إسم أبو محمود إلّا لقباً أطلقه عليه أهله منذ الصغر لأخلاقه الحميدة وتورّعه في أمور الدين .

حين قدم إلى مضافة حمدان ، رحّب صاحب المضافة به كثيراً دون أن يبدي استغرابه من هذه الزيارة المفاجئة والمباركة، وبعد أن انتهى من ترحيبه وتهليله سأله الشيخ

- أخبرني يا حمدان هل علمتَ بما اتّفق عليه أخوك خليل مع التاجر الغريب الذي ينزل عندك عادةً؟

ارتبك حمدان قليلاً ثم تمالك نفسه وردّ قائلاً:

- عن أيّ اتّفاقٍ تقصد؟

- وهل يملك أخوك خليل شيئاً يتّفق عليه مع تاجر؟ فأنت تعلم مدى الفقر والحاجة الذي يعاني منه وأنّ الجوع يكاد يقتله هو وأسرته لولا الكدّ والتعب الذي تبذله حماته أم حامد مع بناته لاستثمار أرضه.

تجاهل حمدان الموضوع خجلاً وقال:

- وإذاً عن أيّ اتفاقٍ تتحدّث؟

- لابدّ أنّك تعلم أنّه اتّفق معه أن يزوجه ابنته المخطوبة لشخصٍ آخر، فقد نكث بوعده دون خجل ، وقام بسلوكٍ لا يرضي الله ولايمت إلى الرجولة بصلة ...

سكت حمدان وعلّق نظره إلى الأرض فتابع الشيخ قائلاً:

- أريد أن أراه يا حمدان قبل أن أعود، فلترسل لي في طلبه حالاً.

أسرع خليل في الحضور يمنّي نفسه بخبرٍ جديد عن التاجر وعندما أقبل إلى المضافة ولمح الشيخ في الداخل ارتبك، فهو لا يحبّذ رؤيته.

لكنّه اضطرّ للدخول والسلام، ردّ الشيخ السلام وأخبره أنّه هو من أرسل في طلبه، استغرب خليل الأمر فليس هناك ما يربطه بهذا الشخص إلّا أن يكون هناك أمرٌ يقع ضمن حدود سلطته التي يعرف قدرها خليل جيّداً، ما أثار ارتباكه أكثر، وقال:

- تفضّل يا شيخنا أنت تأمرنا...

ردّ الشيخ:

- لا يا خليل الآمر الناهي هو الله وحده وكلّنا عبيده، ولا يخفى عليك أنّ الله قد أمرنا بصدق اللسان وحفظ الوعود.

-نعم أكيد...

-وقد بلغني أنّك قد وافقت على خطبة ابنتك المخطوبة والتي قرأنا فاتحتها منذ شهور، فدخل الشاب بيتك وقد أبحت له التعرّف على أسرتك بما فيها عروسه وصار بينكم وبينه خبزٌ وملحٌ، ولا يخفى عليك أنّ هذا الشاب تربطنا به وبأهله روابط عديدة وهناك مصاهرات قديمة بين العائلتين، فما الذي يجعلك تنسف ذلك كلّه؟

ردّ خليل وقد بدأ عش الدبابير في صدره يستيقظ من سباته:

-من أوصل إليك هذا الخبر ؟

ردّ عليه الشيخ بهدوئه المعهود:

- لا يهمّ مع من وكيف وصل إليّ الخبر، المهمّ أنّه وصل وأنت تعلم أنّ ما تريد فعله حرامٌ وظلم...

علا صوت دبّورٌ نشط بداخله:

-هي ابنتي وأنا حرٌّ بها...

-هي ابنتك وأنت حرّ فافعل ما بدا،لك ولكن أريدك أن تعلم أنه محرّم على أهلك وأقاربك التعامل معك، فلا كلامٌ ولا سلامٌ ولا بيعٌ ولا شراءٌ بينك وبينهم .

خمدت قليلاً نيران خليل لسماعه هذا الكلام فهو يعرف جدواه تماماً وقال:

-ولمَ هذه الحميّة كلّها أهيَ من أجل أحمد وأهله المرابعين؟

- بل ذلك من أجل إحقاق الحقّ وحفظ العهد، ولا تنسَ أنّ أحمد وأهله من أصحاب السيرة الطيّبة والأخلاق الحميدة.

- لكنّه فقير

- ألم تكن تعرف فقره يوم خطّبتَه ابنتك؟

- تلك كانت غلطتي التي لم أتشاور مع إخوتي بشأنها.

انتبه الشيخ إثر هذا الكلام لوجود حمدان فوجّه إليه السؤال:

- وهل أنتم موافقون على هذا يا أخي حمدان؟

ردّ حمدان متأتأً...

- نعم يا شيخ فنحن عائلة من ملّاكي القرية ولا يليق بها أن تزوّج بناتها لمرابع ابن مرابع.

ظلّ الشيخ محافظاً على هدوئه وقال:

-يا أخي كلّنا فقراء على باب الله وما تنوون فعله يتنافى مع أصول المجتمع والدين و ها أنا قد حذّرتكم وقد أُعذِر من أنذر.

غادر الشيخ المكان تاركاً خلفه صدى صوته وكلامه المفعم بذكر الله وعلى وجوههم الاستياء والحيرة عمّن سيكون قد أبلغه الخبر بهذه السرعة؟

ولم يكن لديهم من احتمالاتٍ إلّا أن تكون أم حامد هي التي فعلت ذلك، فهاج صدرخليل من جديد وفكّر أن يلحق بها إلى الحقل يحاسبها على فعلتها إلّا أنّ أخيه حمدان نصحه ألّا يفعل ذلك على مرأى الحصّادين فينتشر الخبر في القرية وتهتزّ صورتهم أمام الناس، واقترح عليه أن يذهب إلى شقيقته أم يوسف ويبحث معها الأمر علّها تجد له مخرجاً من هذا المأزق دون أن يخسر الصفقة التي بين يديه وبما أمكن من السريّة.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

عادت أم صالح إلى الحقل و انحنت بجسدها الرشيق والنحيف وأخذت تجمع أغمار الشمائل والدم في عروقها يتراكض

مسرعاً يلوّن وجهها الأسمر، وحين صارت قريبةً من زوجها . التفت إليها فإذا بالعرق يتصبّب من وجهها الذي غدا بلون الدبس حلاوته المحبّبة وسألها مستغرباً:

- أيّن ذهبتِ دون أن تخبريني؟

- ألم أخبرك ألف مرّةٍ أنّ الدم الذي يجري في عروق أقاربك وعائلتكم كلّها لونه أزرق؟

فردّ بلهجة مزاحٍ خفيف عسى أن يخفّف انفعالها:

- وهل أنا أيضاً دمي أزرق؟

قالت والانفعال يتطاير من عينيها شراراً خفيفاً:

- أنت وأخوك من تلطّف الله بكما، لإنّ الدم الذي يمشي في عروقك هو من دم عمّتي الصافي وهذا ما جعل أخاك المرحوم يندفع ويرمي بنفسه للموت في وجه الفرنسيين فيستشهد دفاعاً عن الأرض، فهل كان أحد غيركما من العائلة يشارك في تلك المعركة ؟

تنهّد أبو صالح تنهيدة أسىً عميقة ورغرغت عيناه بالدموع فالحزن ما زال مقيماً في روحه التي أصيبت بصدمةٍ عنيفة حين قُتل أخوه الوحيد أمام ناظريه دون أن يعطيه الموت برهةً أخرى ليوصيه بأطفاله الأربعة. فأجابها بعد أن تبدّلت لهجة المزاح عن لسانه ووجهه:

- ما الذي جعلك تتذكّرين هذا الآن؟

- ستتأكّد من كلامي حين أخبرك عن سبب فعلة خليل

وبعد أن جمعت كلّ الشمائل ووضعتها فوق الغمر الكبير، فتحت الصرّة المركونة في ظلّ حجرٍ كبير فأثارت شهيّة أبي صالح وذكّرته بجوعه وعطشه حينٍ فاحت منها رائحة الخبز المبلل بالسمن البلدي، فأمسك بقربة اللّبن أطفأ منها عطشه وبرّدَ من حرارة عينيه اللتين أحرقهما الدمع، بينما أم صالح تعمل بيديها وتتابع حديثها الذي لم تستطع تأجيله لحين الانتهاء من تناول الفطور

.....

صار صوت دقّات قلب أم حامد يعلو كلّما ارتفعت الشمس بخطواتها نحو قرص السماء فهي تعرف ما الذي ينتظرهنّ في البيت. راقبت البنتين وهما تحاولان الحصول على قطراتٍ أخرى من ماء القربة التي أفرغتاها، محاوِلَتين بذلك تخفيف لزوجة الدم الساري في جسديهما بعد أن ذهبت ماؤه دموعاً وعرقاً فقالت:

- هيّا يا بنات لنتساعد في لَمّ الشمائل حتّى نعود إلى البيت هرباً من وجه الشمس، وإلى أن يحين المساء يفرجها علينا الله.

مشينَ الثلاثة إلى البيت بخطواتهنّ الوئيدة والمتعبة، قطعن الحقول صامتاتٍ عن أيّ كلمة، وكلّ واحدةٍ منهنّ تعرف ما يدور في صدر الأخرى. حين وصلن إلى باب الدار كان صوت خليل يلعلع في الداخل، توقّفت شهلا ونظرت في وجه جدّتها ثمّ في وجه أختها الذي انقلب احمراره إلى صفرةٍ باهتة،

فما كان من أم حامد إلّا أن رمقتها بنظرةٍ قويّة بعينيها السوداوين كسواد أيّامها، وسألتها:

- ما بكِ؟ أيّن شجاعتكِ؟ فلتدعيه يهدُّ ويرعدُ كما يشاء وكأنّك لا تعلمين بشيء، ولا تفسحي المجال لشفتيك أن تبغما بحرفٍ واحد لئلا يصبّ نار غليله عليك.

وتابعت بصيغة الأمر:

-هيّا سيري خلفي وحاولي أن تهدّئي نفسك.

دخلت أم حامد والبنات من خلفها الدار، فإذا بخليل بانتظارهنّ والشرار يتطاير من عينيه:

-اسمعي يا امرأة، أنا حرّ في أمر بناتي، أزوجهنّ لمن أريد ووقت أريد، ولا تظنّي أنّني سأنصاع لأوامر هذا الرجل الخرف الذي أسميتموه شيخاً عليكم.

لم ترفع أم حامد نظرها بوجهه وتشاغلت بأمر غسيل يديها ووجهها بالتشارك مع حفيدتيها على صبّ الماء واستنباط رغوة الصابون من القطعة الصغيرة. وحين جفّفت وجهها ويديها بخرقةٍ عتيقة، نظرت في وجهه نظرة برودٍ واستخفاف وقالت:

-افعل ما بدا لك فهذا الأمر لا يهمّني بشيء...

استشاط أكثر حين لاحظ نظرتها ونبرة الاستخفاف في جوابها فصرخ في وجهها:

- من سيكون قد أوصل الأمر إلى أبي محمود غيرك أنت وبناتك ؟

رفعت أم حامد صوتها ونظرت في وجهه نظرة استهزاءٍ وغضب وقالت:

-لو كنت تمدّ يديك القويّتين هذه وتسير معنا إلى الحصاد كما يفعل الرجال الذين يسعون لإطعام عوائلهم وأطفالهم، لكنت عرفت أنّنا مشينا إلى البريّة قبل الشمس ولم نرجع إلى الآن. أمّا وأنت تتمشّى في شوارع القرية فلتسأل نفسك وإخوتك كيف عرف الشيخ، فردّ عليها بصوتٍ أقوى:

- إذاً لم يبقَ إلّا ابنتك هذه التي تظّل هنا في الدار.

قال ذلك وهو يعلم أنّه يستحيل على زوجته أن تجرؤ على ذلك.

لم تستغرب أم فاضل ما يدور بين أمّها وخليل، فقد أخبرها بما حصل مهدّدا إيّاها بالطلاق كعادته، هذا التهديد الذي صارت لا تكترث له لكثرة تكراره، ولم تنطق بحرفٍ واحد فتشاغلت بإطعام طفلها تاركةً أمّها وحيدةً في ساحة المعركة في حين ظلّت البنتان بالغرفة الثانية بعيداً عن وجه أبيهما، جامدتين كتمثالين من حجر خوفاً من أن يدخل إليهما ليبصق عليهما بألفاظه المؤلمة كوخز السكاكين وضرباته التي تقاومها أمّ حامد أحياناً وتتجاهلها أحياناً أخرى لكن نادراً ما كانت تخلو أجسادهنّ من الكدمات التي تسبّبها يداه القويّتان وركلاته الوحشيّة.

إلى أن سمعتا خطوات خروجه من البيت فبدأتا بالحراك والخطو بعد أن أفرغ ما في جعبته من كلامٍ بذيءٍ.

.....

استقبلته أخته أم يوسف بوجهها الشاحب وعينيها الباهتتين كأنّ عقرباً قد نفث سمومه فيها، تتأفّف وتثرثر بصوتٍ خفيف ، فهي لن تسمح لأحدٍ أن يمنعهم من الفوز بالصفقة التي ستحقق لأخيهم ربحاً مادياً ولعائلتهم ربحاً معنوياً ومزيداً من الانتشار وستقطع طريق مصاهرتهم على ابن المرابع. وتوقعت انه ليس إلّا أمّ حامد وابنتها من أوصل الخبر الى الشيخ فهي لطالما اعتبرتهما وجه النحس على أخيها وهذه شرارة جديدة أولعتها في رأسه كما فعلت زمناً طويلاً.

فسألته:

- ها؟ أخبرني ماذا فعلتَ مع الحيّة السوداء وابنتها عقوبةً على فعلتهما؟

- لم تعترفا بالأمر...

- لا عليك أنا سأتصرّف وسأجعل أحمد هو الذي يفسخ الخطوبة بنفسه، أمهلني إلى الغد فقط...

-علينا أن ننهي الموضوع بسرعة، فقد يحضر التاجر وأهله بين ساعةٍ وأخرى.

- حسناً فلتعدْ أنت إلى بيتك وانتظر خبراً منّي.

خرج خليل بينما راحت هي تقلّب الأفكار في رأسها ، راودتها عدةُ أفكار، كأن تشي بأحمد وشاية عند الشيخ تجعله ينفرمنه ويسحب يده من الموضوع ، أو أن توشوش في أذن أمّ صالح بعض الهمسات عن شهلا وأمّها تجعلها تؤثرعلى أحمد في أنّ يصرف النظر عن الارتباط بعائلة خليل ، وبعد ليلةٍ طويلةٍ من التقلب على فراش التفكير والتمحيص ، في الصباح توجهت إلى بيت الشيخ.

.....

كان يوماً مغبرّا بوجه أحمد وشهلا، غباره غطّت فسحة الفرح التي أفرد لها أحمد مكاناً في قلبه، ونتفت رياحه أوراق الورود التي نقشتها شهلا على الشرشف الأبيض الذي أهدته إليها أم صالح لتطرّزه بالفرح وتعلّقه على شبّاكها ليلة العرس ليخفي عن العيون أسرارها هي وأحمد.

شعر أحمد اليوم أنّ عينيه قد عميتا وصار ينظر إلى الزرع فيراه أسود محروقاً... يمدُّ يديه إلى السنابل فلا يرى إلّا السواد قد صبغ كفّيه والتراب والحجر... مرَّت الساعات بطيئةً جدّاً وكأنّه صار يعمل في الظلام. وقبل أن يحين موعد الرجوع إلى الدار هبَّ واقفاً، استأذن أباه وعاد إلى البيت يذرع المسافة فلا يشعر بالأرض من تحته، شارد الذهن محتاراً يقفز من فوق الحيطان كأنّه يركض في المنام، يريد أن يصل إلى البيت علّه يسمع خبراً أو يعرف جديداً...وقد صارت أغمار الحنطة بين يدي أمّ صالح أكوام شوكٍ لا تعرف كيف تجمعها دون أن

تؤذيها فطلبت من أبي صالح أن يعودا اليوم أبكر من العادة، وبعد أن اغتسلت وبدّلت ثوب العمل شعرت أنّ البيت قد ضاق بها وتريد أن تعرف أخبار أحمد، وبلمح البصر كانت في بيت أختها وإذا بأحمد يدخل الدار، فالتقيا تحت شجرة التوت وسمعت أم أحمد صوتيهما في تبادل التحايا فتركت عملها في تحضير الطبيخ وخرجت إليهما وجلس الثلاثة على المصطبة، لم يرضَ أحمد أن يغتسل فوراً كعادته حين عودته من العمل، كان وجهه مسودّاً كأنّه كان يعمل في حقلٍ محروق فعلاً، فقال موجّهاً السؤال لأمّه وخالته معاً:

- هل عرفتما أيّ أمرٍ يخرجنا من هذه الحيرة التي أطبقت علينا؟

ردّت أم صالح:

- نعم عرفت لكن أريدك أن تمسح وجهك بالرحمن وتسمعني بهدوء...

-هاتِ ما عندك يا خالتي فمن أيّن أجلب الهدوء؟

- اسمع.... هناك شخصٌ آخر قد طلب شهلا وأغرى خليل بالمال.

هبَّ أحمد واقفاً وزمجر كنمرٍ غاضب:

- من هو ذلك الشخص الذي تجرّأ على الاقتراب من عروسي؟

- شخصٌ لا يعرفك فهو غريبٌ عن القرية...

تفاجأ أحمد أكثر وقال مستغرباً ولازال الغضب يتطاير من قسمات وجهه:

- ومن أيّن عرف الغريب شهلا؟ ومن أيّن أتى هذا الغريب؟؟ علا صوت أم أحمد بانفعالٍ وغضب:

- ماذا تقولين يا أمّ صالح؟

-كيف سأخبركما وأنتما على هذه الحالة؟

هدّأت أم أحمد من غضب ابنها قليلاً قائلة:

-دعنا نسمع ونعلم الأمر

قبل أن تكمل أم صالح كلامها كان أبو أحمد قد ساقته قدماه إلى الدار يتبع ابنه المقهور فانضمّ إليهم، وبعد أن سمعوا الخبر مفصّلاً وعرفوا ما تصرّفته هي وأم حامد إزاء ذلك ، أخذ يهدّئ من روع ابنه بأمله الكبير بالشيخ وحسن تصرّفه، و تحايل عليه فأخذ منه السكين الذي كان يلازمه في جيب سرواله. وطلب منه أن يصبر أياماً معدوداتٍ حتى يذهب الى الشيخ يتساءل معه حول الموضوع ومن ثم العمل على تكليف عددا من وجهاء العائلتين لإعادة طلب العروس من جديد .

فوافق أحمد على ذلك مرغماً.

"""""""""""""""""""""""

حين وقفت أم يوسف أمام الشيخ ، رد عليها تحيتها وتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم الذي تملّك من هذه المرأة بوجهها

الحانق وعلامات الغضب البادية عليه رغم محاولاتها التودّد والمديح

وقال:

ـ تفضلي يا ابنة عمّي اجلسي وهاتِ ما عندك، خيرٌ إن شاء الله. ردّت أم يوسف بعد أن جلست مواجهةً له

ـ خير إن شاء الله . جئتك بشأن ما حدث بالأمس بينك وبين أخي خليل راجية أن تغضَّ النظر عن هذا الموضوع ، فكما تعرف إنّ الدنيا قسمةٌ ونصيب و ليس لأحمد عندنا نصيب، فالأهل يعرفون مصلحة بناتهم أكثر من أيّ أحد.

ـ لكن الذين تتحدثين عنهم هم الأهل الذين يخافون الله ويخجلون من عبيده إذ يخطئون.. وليس أخوك خليل الذي يفعل ما لا يقبله الله ولا الناس .

هبت أمّ يوسف واقفة والغضب يتطاير من عينيها وخرجت مسرعة ووعدت الشيخ في سرّها أنها ستجد طريقةً تنسف بها كل هذا الكلام وتنسف معه إبن المرابع من حياتهم جميعاً.

"""""""""""""""""""

مرّت الأيام فزادت عن العشرة ، كان أبو أحمد خلالها يتردد يومياً حين عودته من الحصاد ظهراً على بيت خليل يسأل عنه إن كان قد عاد الى القرية من زيارة أخته التي تعيش مع زوجها في قرية مجاورة .

تردّ عليه أمّ فاضل أنّها لا تعلم موعداً لعودته، وكان البيت في تلك الفترة ينعم بهدوء لم يتلذذ به اصحابه من قبل وكأنها أيامٌ من نعيم الآخرة إلاّ أن هذا النعيم كان من جهةٍ أخرى جحيما على شهلا التي تزداد قهراً يوماً بعد يوم، ومواقف محرجة لأخيه حمدان حيث وقف حائراً أمام التاجر الذي وصل بعد مسير أربعة أيام برفقة جاهةٍ مؤلفة من عددٍ من الرجال والخيل والهدايا ليجدوا أنّ والد العروس غائب عن القرية ومازال العريس الأسبق متمسكاً بعروسه رغم محاولات أم يوسف التي باءت بالفشل.

حيث ذهبت لدار أبي أحمد كالقضاء المستعجل بعد فشلها في إقناع الشيخ أبي محمود.. وبعد التحيّة الباردة والسلام المصطنع رحّب بها أهل البيت وتجاهلوا وجهها الذي يشير إلى بوادر شرٍّ مقبل .

حين أوسعوا لها مكاناً على المصطبة، قالت موجهة الحديث الى أبي أحمد تطلب منه أن ينسوا أمر العروس وأن يبحثوا لابنهم عن عروس أخرى تناسبهم فثارت أمّ أحمد بوجهها ولم تفسح المجال لزوجها بالرد تسألها :

- تناسبنا؟ من أي ناحية وماذا تقصدين؟سكتت أمّ يوسف لكن أمّ احمد ليست غافلة عما تقصده المرأة فاسترسلت تقول :

أن الاملاك لم ترفع يوماً من شأن مَن تكبّر وشدّ على يد الظالم. وأنّ أحمد يمتلك الكثير بأخلاقه وسمعته الطيبة ويكفيه أنّه حفيد شهيد.

واحترم رجال البيت المرأة التي تدوس بساطهم وأفسحوا لها المجال لتتكلّم مع النسوة، وعندما احتدم النقاش أكثر استشاط غضب أحمد وأبيه، فما كان من أحمد إلا أن رفع صوته بوجهها ليخبرها أنّ من يسرق منه عروسه سيحفر له قبراً على مزبلة القرية، ثمّ أخبرها أبو أحمد أنّ الأمر صار عند الشيخ أبي محمود ونحن راضون بحكمه، وأكمل بما معناه أن تعودي إلى بيتك قبل أن نطردك،فلن نسمح لك بشتمنا في عقر دارنا... خرجت المرأة من الدار و لكنّها لم تستطع أن تمنع نفسها من رمي حجرٍ قبل أن تغادر ، إذ عيّرت أحمد أنّه مرابع ابن مرابع فتطايرتْ شظايا حجرها وأصابته لتؤذيَ روحه بجرحٍ بالغ في الصميم.

''''''''''''''

لم يبقَ أمام أمّ يوسف إلّا حلٌّ وحيد وهو محاولة إقناع شهلا وأمّها وجدّتها، في اليوم التالي قررت أن تدخل بيتاً تعلّم أنّه غير مرحّبٍ بها فيه لكثرة ما لها مع نسائه من سوابق زعلٍ وخلافات، وقبل أن تتفوّه بحرف بعد الاستقبال والسلام تهيّأت أم حامد للمناورة، فمدّت ذراع فطنتها إلى جانبٍ قصيٍّ في أعماقها واستلّت منه عصا كيد النساء التي خبأتها زمناً طويلاً لحين الضرورة القصوى، فابتسمت في وجه أمّ يوسف وسألتها:

- كيف حال صبيّتيك يا أختي؟

الصبيّتان في بيت أم يوسف تقاربان شهلا عمراً إلّا أنّهما دميمتا الوجه قصيرتا القامة قليلتا الفطنة والذكاء نتيجة

عنصرية العائلة وزواج الأقارب المتكرّر، فإذا بالبنتين تنتظران بحسرة ولوعة العرسان الذين لا يقتربون منهما إلاّ في الأحلام.

ردّت أم يوسف تحمد الله بعد أن قامت أم حامد بتحريك الحسد والغيرة بداخلها كعشّ نملٍ اشتمّ رائحةً دسمة وصار يمشي تحت جلدها، كادت أن تهرش وجهها ورأسها الذي أحسَّت بثقله ودواره حين أخبرتها أم حامد عن العرسان الذين يتقاتلون على شهلا وندهت حفيداتها ليسلّمن على عمّتهنّ، وطلبت منها أن تسبّح الخالق على جمالهن، ومن ثمّ سألتها عن رأيها في أمر خطبة شهلا على اعتبارها عمّتها ولا تريد لها إلّا الخير.

شاركت أم فاضل بالحديث ، فإن نصل كيد النساء قد نكزها هي أيضاً وتريد أن تحرّره من داخلها ، فقالت إن الخيارين واحدهما أفضل من الآخر، وسيجلبان لابنتها الحسد والغيرة من بنات القرية

فإذا بأمّ يوسف يسحبها كيدها إلى مكانٍ آخر، صارت تتخيّل شهلا منعّمةً ومدلّلة في بيت زوجها والغيرة التي ستأكل قلبيّ بنتيها، والمباهاة التي ستمنح أم حامد وابنتها قوّةً لم تحسب لها حساب .

نهضت واقفةً ومازال النمل يسعى في صدرها حتى ضاقت به ذرعاً فخرجت مودِّعةً وهي تجدّد الوعد في سرّها لأمّ حامد، أنّه لن يكون هناك عرسٌ ولا عريس.

.....

اعتذرحمدان من الضيوف، وأخبرهم أنّ أخيه اضطر أن يغادر القرية لأمر ضروري. طالباً منهم أن يصرفوا النظرنهائياً عن موضوع العروس مبرراً ذلك بخوفهم من إثارة خلافات بين العائلتين قد تؤدي الى ما لا يُحمَد عقباه . فعاد التاجرومن معه خائبين تاركين خلفهم الهدايا كخسارة صغيرة أمام خسارته الأكبر وهي العروس التي منّى نفسه بها.

قلّبت أم يوسف الأمور في سرّها كثيراً ، ولامت نفسها على عدم فطنتها للأمور أكثر ، وصارت خيالاتها بشهلا منعمةً في بيت تاجر ميسور الحال، وما سيبعث في نفوسهنّ هي و بناتها من غيرةٍ وحسد . خيالاتٍ جعلتها تُقرّ أخيرا أن لا مصلحة لها في تلك الصفقة ولتلعب على خطٍ آخر أقرب وأسهل .

لجأت الى أخيها حمدان ، بلهجةٍ مختلفةٍ تماماً ، حيث لفّتها بغطاءٍ رقيقٍ من القبول والانصياع .

واتفق الاثنان أنه لامفرّ لهم من الرضوخ لطلب الشيخ وبضرورة إقناع خليل بذلك وطلبت منه أن يرسل أخيه فهد وراءه يعلمه أن عودته الى بيته قد حان وقتها.

"""""""""""""""""""

تجاهل أحمد وأبوه علامات الحنق من الخيبة والانصياع البادية على وجه خليل حين استقباله لهما ومن معهما من رجال يجددون الطلب منه للمصاهرة معتذرين عن أي تقصيرٍ كان قد حصل مؤكّدين تمسّكهم بعروسهم ومجددين

العهد على أن يكون أحمد ولداً له بينما ظل هو واجماً مكفهرّ الوجه يهمهم ببعض كلمات الترحيب المعتادة.

وحين صارت السنابل أكواماً على جوانب البيادر تنتظر الدرس وانتهت مهمة أمّ صالح في الحقل. ابتاعت من الدكّان صرراً صغيرةً من الأصبغة والنيل و شمّرت عن ساعديها لتجهيز غرفة العرسان بمساعدة أمّ العريس وبناتها، فجبلن التراب مع الماء بأيديهنّ وأعدن به طينة الغرفة، وحين جفّت الطينه قمنَ بتلوينها بالكلس الأبيض الممزوج برشّة نيل ونقشنَ الألوان على الرفوف تحكي قصّة فرح، وعلت زغاريدهنّ أثناء العمل فاجتمعت حولهنّ النسوةً يساهمن بالعمل والغناء، ثم مددن طبقةً من الطين على أرضها وظلّت أم صالح تعيد صقلها حتّى أصبحت ناعمةً لتدوسها قدما العروس وتختبر بهما كم بذلن من الجهد فرحاً بها. وأعدن تنجيد الفراش والوسائد المخصّصة للعروسين وطوين بداخلهم الضحكات والمباركات، ثمّ أحضرت أم صالح من بيتها بساطاً جديداً من صنع يديها وفرشت به الغرفة.

ولمّا كانت قد تكفّلت أيضاً بجهاز العروس، ركبت الفرس خلف زوجها وانطلقا إلى المدينة، وصلا بعد مسير ثلاثة أيّام تتخلّلها فتراتٌ من المبيت والراحة عند معارفهم القاطنين في القرى التي مرّوا بها، فقامت ببيع بعض الليرات الذهبية التي كانت قد وعدت أحمد بها وابتاعت بثمنها طوقاً ذهبيّاً وإسوارةً وجهازاً للعروس وثياباً جديدةً للعريس، ولم تنسَ هدايا المناسبة السعيدة عباءةً لوالد العروس وثوباً لأمّها وقنبازاً جديداً لأخيها الكبير فاضل.

كان طريق العودة مفروشاً بالورد أمامها، تحثّ الفرس تستعجل الوصول وكأنّ العرس متوقّف على هذه الساعات التي ستختصرها. ولما صارت المحاصيل حبوباً تنقل إلى الكواير تمكّن أبو أحمد من شراء الذبائح والقهوة المُرّة من حصّته من محصول الأرض التي يزرعها للإقطاعيّ.

استُقبلت أمّ صالح بالفرح حين وصولها محمّلةً بالذهب والأقمشة، وفي اليوم التالي حملت هي وأختها أم أحمد وبناتها الثلاث جهاز العروس ترافقهنّ بعض الصبايا من بنات عمومتهنّ وانطلقن إلى بيت العروس تردّدن على الطريق الأهازيج الخاصّة بالمناسبة، وهناك قمن بفرد الأقمشة والرقص بصينيّة القشّ وعليها قطعتا الذهب.

وقبل عودتهنّ قامت أمّ أحمد بتوزيع حبّات المطعّم الملفوفة بالورق التي جلبتها أم صالح من المدينة، وفتحت قنّينة عطر وعطّرت كلّ الحاضرين، وانشغلت أم صالح بتعليم نقاط القصّ على أحد الأقمشة فيما يناسب قياس العروس ليكون نموذجاً للقطع الأخرى. وفي صباح اليوم التالي كانت تجلس خلف ماكينة الخياطة وصوت غنائها يشقّ الفضاء حتّى يكاد يصل إلى بيت أختها ام أحمد.

وعادت شهلا تطرّز على الشرشف الأبيض كلّ العصافير التي تدور في قلبها وتزقزق أغاني الشوق، تحاكي ورداتها التي زرعتها حول مسكبة النعنع تنتقي منها الأجمل وتطرّزها في فم عصافيرها، تودّع الشمس بفرح حين تسقط خلف التلال وتجرّ خلفها يوماً آخر من أيّامها الطّويلة التي تفصلها عن أحمد الذي تباعدت زياراته بناءً على طلب أبيها.

وعاد أحمد ينادي حمائم الدار تشاركه في وداع الشمس عند الغروب، تهدل له فرحاً بكمشة القمح التي يرشّها لها على الأرض، يبادلها الهديل بصوته الشجيّ ويتغزّل بعيني شهلا والفرح الموعود. وحين لم يبقَ إلّا أيّام قليلة لتُلَملم البيادر ويتنفّس الفلّاحون الصعداء، ركب أخو العريس فرس خالته أمّ صالح وانطلق يجوب القرى المحيطة التي لهم فيها أقارب يدعوهم إلى العرس، وكان صوت جرش البرغل والحداء لا يهدأ في الدار إلّا في أوقات النوم.

وقبل موعد العرس بيومين حملت الصبايا صواني الحنّاء وتوجّهن يرافقن بأهازيجهنّ الشمس مشوارها نحو الغرب جهة بيت العروس وأصواتهنّ تعلو بالغناء

علت معها دقّات قلب شهلا وأخفت ابتسامات الفرح عن وجهها كما أوصتها أمّها، وقبل أن يكملن جبْل الحنّا لتلوين كفّي العروس أوّلاً ومن ثمّ كفوفهنّ، وإذا بخليل يقف في الباب بوجهه العابس ودون أن يرمي السلام نظر إليهنّ نظرة غضبٍ وقال:

- مَن أذن لكنّ فعل هذا في بيتي؟

سكتت الصبايا عن الغناء وساد الصمت برهةً. وإذا بأم حامد تأتي من خلفه وقد اصفرَّ وجهها من شدّة المفاجأة وعبست عيناها وقالت:

- ومنذ متى حنّاء العروس يحتاج لإذن أبيها، ألم يستأذنك أحمد وأبوه بموعد العرس وقد وافقت؟

ردّ خليل بكلّ صفاقةٍ واستهزاء:

- لكنّهم لم يأتوا على سيرة الحنّاء وأنا لا أريد هذه الضجّة في بيتي.

فما كان من الصبايا إلّا أن انسحبن الواحدة تلوَ الأخرى. وكعادتها لم تجرؤ أم فاضل على التفوّه بحرف، فقادت شهلا التي تمالكت نفسها من الانهيار ومشت معها إلى الغرفة الثانية تجرُّ قدميها الخدرتين جرّاً، مدّدتها أم حامد على الفراش وبدأت بمناجاة الله والدعاء على خليل، أمّا هو فخرج متوجّهاً إلى بيت أخته أمّ يوسف

.....

تلافت أمّ صالح الغضب فوراً، فهي وأهل أحمد يتوقّعون من خليل مثل هذه التصرّفات الطائشة، وانطلقت مسرعةً إلى بيته تكفكف دموع شهلا . فألبست لهجتها منديل مزاحٍ رقيق:

- أتظنّين أنّ أحمد لن يستقبلك بكفوفك الجميلة دون حنّا؟ هيّا هاتِها ألوّنها قبل أن تجفّ الحنّا، لأعود وأحنّي كفوف الصبايا اللواتي سيصفقّن حولك في دارنا سبعة أيّامٍ بلياليها.

وفي صبيحة يوم الزفاف كانت الدار تعجّ بالضيوف وبأصوات الرجال الذين ما زالوا يتعاونون في سلخ الذبائح وتقطيعها، و زغاريد النسوة وغناؤهنّ كان قد قلب الليلة نهاراً وأزاح عتمتها كثرة السُرج ومصابيح الكاز التي أحضرها معهم رجال الفزعة، وأخذوا بتجهيز طعام الغداء الذي سيكون جاهزاً فور دخول العروس إلى الدار.

وقبل أن ينتصف النهار فيحين الموعد لأن يمسك والد العروس بيد ابنته ويسلّمها عروساً إلى أهل العريس لينقلوها إلى دارهم بفرحٍ ويحتفلون بها حيث ينتظرها العريس بفارغ الشوق والصبر، وإذا بخبرٍ يتسرّب إلى أحمد وأهله مفاده أنّ خليل مختفٍ من الدار ولا أحد يعلم بمكانه.

صعد الدم إلى رأس أحمد وكاد أن يفقده صوابه، فترك أهله يلطمون كفوفهم ويناشدون الله أن تنقضي الساعات المقبلة على خير ويساعدهم في التغلّب على هذا المأزق الذي لم يحسبوا له حساباً. توجّه إلى كرم العنب حيث يأوي خليل حين يريد الانفراد بنفسه، فإذا به جالسٌ تحت شجرة التوت الكبيرة يمسك بيده عوداً صغيراً يحرّكه على التراب وكأنّه يرسم ما يدور في رأسه من صراعات.

أحسّ أحمد بفرجة أملٍ ليست واسعة حين وجده. فتودّد له وكأنّه يسعى لمرضاة طفلٍ صغير وسأله عن سبب تركه للعرس وإذا ما أغضبه أحدٌ لا سمح الله فردّ عليه خليل ولم يزل مطرقاً في عوده التي تنقش على التراب بعشوائيّة:

- نعم، أغضبتموني أنت وأهلك بأنّكم لم تجلبوا من ضمن الجهاز عباءةً لأخي حمدان وهو عمّ العروس.

تفاجأ أحمد من هذا المطلب الذي لم تلزمه به العادات السائدة لكنّه حاول تدارك الموقف واستيعاب الأمر بالاعتذار عن هذا التقصير ووعده بأن ينزل إلى المدينة بعد العرس بنفسه ويأتي بعباءةٍ تليق بعمّ عروسه، وذكّرَه متوسّلاً بأنّ ذلك يحتاج مسير ثلاثة أيّام على الأقل وأنّ دارهم اليوم تعجّ بالضيوف وطعام

الغداء لا يؤجَّل وقد صار جاهزاً للسكب. ظلّ خليل صامتاً وكأنّ أذنيه قد سُدّتا بسدادةٍ كتيمة، وأخذ يسرّع من حركة عوده على التراب وبداخله يعلو ضجيج أفكاره، يفكّر بأحمد الرجل الذي يريده ويحتاجه إلى جانبه، وبحكم الشيخ الذي يخافه إذا بدر منه أيّ موقفٍ مخالف، يتذكر صوت أخيه حمدان يخبره عن مساحة أراضي التاجر، وعن الخير الذي يصبّ في داره كلّ عام ،يفكّر بالصفقة التي خسرها. تعود أمّ يوسف إلى رأسه ساخرةً تردّد "منذ متى نحن نزوّج بناتنا للمرابعين؟ ولمَ لم يجلبوا عباءةً لعمِّ العروس؟ "

وبعد جهدٍ كبير من أحمد كي يستنطقه بكلمةٍ واحدة، ردَّ مؤكّداً قولاً واحداً لا عروسَ لديه قبل عباءة أخيه حمدان.

عاد أحمد مكفهرّ الوجه يلملم دمع القهر قبل أن يطفر من عينيه وما زالت العروس ترتدي ثياب الزفاف وقد صار لون وجهها يتغير تبعا لتناوب تدفّق الدم المعكّر بالقهر والقلق، وبرد حماس الصبايا من حولها مع تسرّب الخبر.

هبّ بعض الرجال لمرضاة خليل بكثرة التوسّل والمديح المصطنع وإقناعه بقبول تأجيل الهديّة وأن ينفّذ طلبه مؤقّتاً بعباءةٍ مستعارة، إلّا أنّ الطفل العنيد بداخله جعله أضعف من أن يتراجع عن قراره، فأصرَّ على تأجيل العرس إلى الغد، وتفادياً لتطوّر الأمور واتّجاهها صوب الخلاف والاقتتال أذعن أحدهم بحكمته أن تنتقل العروس اليوم إلى بيت مضيفٍ غير بيت عريسها وغداً تدخله بزفّةٍ جديدة، فتَبعه الجميع ووافق خليل أخيراً فهو أصبح يريد الخروج بأسرع وقتٍ من حصاره في تلك الزاوية الضيّقة التي حشر نفسه بها.

فانطلق أهل العريس قبل الغروب بقليل وصوت حدائهم يهزّ فضاء القرية ونقلوا العروس التي ما انفكّت تجهش بالبكاء من تحت المنديل الأحمر وتمسح دموعها بالمحارم القماشيّه وأدخلوها بزفّةٍ إلى دار أحد أقارب أحمد وعادوا لتناول طعام القرى في داره.

.....

كانت ليلةً ثقيلة الظل على أحمد وشهلا، كلاهما لم يعرف فيها طعم النوم، كلاهما تقلّب على فراشٍ من حجارةٍ ووسادةٍ من شوك. شهلا خجلت أن تقلّب مَخدتها فتشعر أمّ صالح والنائمات حولها من أهل البيت بقهرها وأرقها واستعجالها للنوم بجانب أحمد، مهّدت المخدّة بكفّها ووضعته تحت رأسها، ابتلعت أنفاسها وتركت دموعها تسيل وهي تعدّ ليالي القهر التي مرَّت عليها أثناء حياتها في بيت أبيها... ذكرياتٌ تمرُّ ببالها كسلحفاةٍ تخرمش صدرها بأطرافها الخشنة فتصبِّر نفسها عسى أن تكون هذه الليلة هي الأخيرة لهذا الجحيم.

وقد وجد أحمد مكاناً ليمدّد جسده في المضافة التي تعجّ بالضيوف، ولم يجد له مخدّةً فألقى برأسه على الفراش وراح يقلِّب أفكاره، هل سينتقم من خليل حين تصبح شهلا زوجته أم أنَّه سيستدين ثمن عباءةٍ لحمدان وينفّذ وعده وتنتهي الأمور إلى غير رجعة، فيتسلّل إليه طيف شهلا بخفّةٍ وهدوءٍ يزيح عن رأسه هذه السحابة السوداء ويقابله وجهها الأبيض وشفتاها الباسمتان، يمطرهما بالقبل ويتقلّب على فراش الشوق والرغبة حتّى الصباح، لم يعرف مستقرّاً لأفكاره إلّا بعد أن صارت شهلا في بيته، وقدم أهلها وعائلتها في صبيحة الدخلة

يباركون للعروسين، فاقتربت شهلا من والدها كما اقتضت العادة قبّلت يده مرتين ووضعتها على رأسها تعبيراً عن الشكر لسماحه لها بالزواج، وأعاد أحمد نفس التصرّف مع عمّه تعبيراً له عن امتنانه أيضاً لتفضُّله عليه بتزويجه ابنته .

وعندما انتهى العرس بعد سبعة أيّام، أعلن أحمد قراره المفاجئ لشهلا على مسمع أهله أنّه لنْ يجلب عباءةً لحمدان وسيتصرّف بأمر إعادة العباءة إلى صاحبها، ويمنع على شهلا أن تذهب لزيارة أهلها واستقبالهم في بيتها الذي هو بيت أهله.

حاول أهله التدخّل للعدول عن قراره إلّا أنَّه حسم الأمر فوراً وهدّد شهلا بأن تبقى في بيت أبيها إن هي داسته دون علمه، ثمّ وافق على طلب أمّ صالح حين رأت أن تجتمع شهلا بأمّها وجدّتها وإخوتها في بيتها كلّما رغبوا بذلك كي لا يحزنها شوقها إليهم ولا ننسى مواقف أم حامد ودعمها لهم.

سكتت شهلا وتكلّمت دموعها عنها فأبدت خضوعها وضعف موقفها.

استمرّت هذه الحالة سنةً كاملة حتّى اقترب موعد ولادة شهلا، فتدخّل الأهل والأقارب وأصلحوا بين الأسرتين وحضرت أمّ فاضل ولادة ابنتها وعلى يدها رضيعٌ هو الصبيّ الرابع لها واستقبلت أمّ حامد الوليد عامر مع أمّ صالح وأمّ أحمد بالزغاريد والفرح.

سيق أحمد للخدمة الإلزاميّة بنفس السنة ومن ثم تطوّع في الجيش وبدأت جولته في محافظات القطر، رافقته فيها شهلا حوالي خمسة عشر عاماً بدأت من المنطقة الشمالية وانتهت

في قريتهم في المنطقة الجنوبية، رافقهم عند عودتهم ستّة أولادٍ صاروا لاحقاً عشرة.

.....

خمسةَ عشر عاماً كان لهم فيها محطّاتٍ كثيرة وفي كلّ محطّةٍ مرَّت بها شهلا تركت عطراً طيباً ، ومن كلّ محطةٍ أخذت وردةً خبّأتها في كتاب حياتها إلى أن جمعت باقةً تضمّ ألواناً عديدةً من المعرفة والثقافة والذكريات المختلفة.

وقد أخذتها رحلتها الطويلة تلك إلى مدينة حاصرتها بظلام المجتمع المتشدد فأثقلت عليها غربتها ووحدتها وقد زاد ظلامها أكثر حين وقعت في يدها رسالة من جيب قميص أحمد حين أرادت غسله، فتحت الرسالة وأضاءت شمعتها التي حصلت عليها من يومها الوحيد عند الكُتّاب وصّلت الحروف حتّى صارت كلماتٍ فإذا بالرسالة القادمة من أخيه تحمل نبأً وفاة أمّها منذ ثلاثةُ أشهر وذلك بعد وفاة أمّ حامد بفترة قصيرة.

هذا الخبر الذي وصل إليها متأخّراً أدخلها في سرداب أحزانٍ معتمٍ و طويل ظلّت فيه أسيرةً ووحيدةً مدّةً طويلةً، ولم تخرج منه إلّا عندما اشتمّت هواء البحر على الشاطئ في مدينة ساحليّة عاشت فيها حوالي خمس سنوات كانت أجمل أيّام عمرها الذي وصل إلى بداية الثلاثينيات، ظنّت حينها أنّها ودّعت حياة البؤس والتعب إلى الأبد. إلا أنّ مرض القلب داهمها هناك بأولى نوباته التي ذكّرتها بيوم أجبرها أبيها على تنظيف الزريبة، ولازمها الظنّ طيلة حياتها أنّ ذلك

اليوم كان سببا لمرضها المبكّر. بعدها تمّ نقل أحمد للخدمة في محافظته فأصرّ على الاقامة في قريته والعيش فيها بكلّ ما تنطوي عليه من فقرٍ وشقاء.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

عادت إلى القرية في أواخر ستينيات القرن الماضي حزينةً يائسةً بعد محاولاتها العديدة في إقناع أحمد بتذكيره بصعوبة العيش هناك لافتقارها للماء والكهرباء والمدارس، وصوّرت له المستقبل الذي ينتظر أولادهم في المدينة ومدارسها وعيشتها السهلة علّه يستأجر لهم بيتاً فيها يكون قريباً من مكان خدمته، أو أن يحاول الانتقال إلى العاصمة فتسكن في المخيّم الذي انتقل إليه أبوها وإخوتها بعد وفاة أمّها، حيث باع خليل أرضه في القرية واشترى بيتاً في المخيم حين وجد له عملاً وراء عربة خضار ، لكنَّ أحمد رفض الفكرة رفضاً قاطعاً، و كان طموحه الأكبر هو أن يرجع إلى المكان الذي خرج منه يوماً بثياب الفلّاح الفقير ليعود اليوم إليه ببدلته العسكرية التي أخذته في رحلةٍ طويلةٍ وقد اعتقد أنه اكتسب من خلالها تميّزاً وترفّعاً عن أُولئك الذين ظلّوا هناك يعملون في الحقول.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

# نورة

كغيره أحمد من الفقراء الّذين طالما دغدغت مشاعرهم رائحة المسك التي كانوا يسمعون بها دون أن يعرفوها ، كل ماعرفوه عنها أنها رمزٌ للطهارة والقداسة .
فإذا بهم يستبدلونها بعطرٍ استخرجوه من أنفاس نسائهم المخبأة خلف الحجاب ورائحة أجسادهن المغطاة عن الأبصار ومن اختلاجات مشاعرهن المكبوتة في صدورهن وزفرات الحرمان الخفية، مزجوها معاً في قوارير من زجاج هش أسموها مسك السمعة ونذروا أرواحهم ودماءهم لحمايتها والدفاع عنها فهي بالنسبة لهم عطرهم الفريد و مبعث الاعتزاز بالنفس .
فعندما بصم هو و شهلا على عقد الحبّ الذي جمعهما، تعاهدا أوّلاً على أنّهما سيبذلان الغالي والرخيص للحصول على هذا العطر والعمل على حمايته من الدنس والضياع وذلك بأنّ تبذل شهلا كلّ ما بوسعها وبكلّ ما أوتيت من قدرةٍ على التجلّد والاحتشام، لإنشاء أسرةٍ شريفة، إضافة إلى ما تضمنته كل العقود السابقة التي نصت على تزويج أجدادهم من جدّاتهم

منذ زمن بعيد من تحميل الزوجة كامل المسؤولية في الحفاظ على شرف الأسرة، على أن تشارك بها البنات لاحقاً ،فيما يساهم الأبناء مع الأب في المساءلة عن ذلك فقط.
كانت شهلا بدورها تعمل على تنفيذ العهد دون تذمّر، عن قناعةٍ ورضى أحياناً، وامتثالاً لأوامرزوجها أحياناً أخرى وحبّاً به أغلب الأحيان. فإذا بها تجعل منا نحن بناتها دميً زجاجيةً سريعة العطب، يحرصون دوماً على إبقائها في العلب، يقومون بتلميعها ووضعها في الواجهة لفترةٍ قصيرة بين الحين والآخر ليظلّ الشاري في توقٍ دائمٍ لرؤيتها أكثر،
وحين تتحرك بداخل أبي عاطفة الأبوّة ويغلبه الحنوّعلينا كان يخبرنا أنّ البنت وردةٌ جميلة وضعها الله في مزهرية البيت،يفوح منها عطر الأنوثة المحبّب للقريب والغريب، وأنّه يخاف أن ينقلب هذا العطر إلى رائحة يباسٍ واخزة إن تعرضت للضوء والهواء أكثر من اللازم، محاولاً بذلك أن يمسح عن نفوسنا طبقةً من الظلم والكآبة ، تراكمت نتيجة ابتعادنا عن المجتمع ومخالطة الناس
بذلك عاشت شهلا عمرها الذي لم يطل كثيراً بحالة من الحيرة والقلق الدائمين.
فقد كان حرمانها من التعليم خيطاً ملفوفاً على عنقها يضيّق عليها الخناق كلّما حاولت أن تتنفّس هواء الحياة بمكنوناته التي تجهل، وهي في سعيٍ دائم كي لا يمتدّ هذا الخيط ويلتفّ على رقاب بناتها، في حين أنّها تخاف أن يلفحهنّ هواء المجتمع الملوّث بالجهل . فتصبحن في مهبّه أغصانا يابسة

تُداس تحت أقدام النسوة اللواتي استمرأن ظلمة الجهل وتعوّدن على عصبته تلفّ عيونهنّ وعقولهنّ ، فيجمعن تلك الأغصان بكفوفهنّ الخشنة ويرمين بها في محرقة المجتمع الذكورية، التي يتسابقن في إذكاء نارها عن طيب خاطر وإذا بهن إشد اعتراضاً من الرجال على تعليم البنات .

مناوراتٍ كانت تدور في رأس شهلا، وتضعها في مواجهة مع أحمد لعناده وانقياده الأعمى لعادات المجتمع وتقاليده... فصار موضوع ضرورة متابعة نورة تعليمها في المدرسة الإعداديّة في القرية المجاورة محور حديثها أغلب الأوقات، وكانت بذكائها وفطنتها تعرف على أيّ الأوتار تضرب حين تريد لعزفها أن يعلو على صوت زوجها، فتقنعه أنّهم إذا ألبسوا دميتهم ثوباً مخمليّاً فإنّه سيمنحها قيمةً أكبر. وبذلك فلن يحظى بالزواج من بناته إلّا من امتلك المال والجاه الذي يحلم به لهنّ

بذلك حصلت منه على الموافقة أخيراً شرط أن تضع نورة على رأسها (ايشاراً) صغيراً يغطي شعرها، عسى أن تلجم به لسان الجدّات والعمات.

قبلت شهلا الشرط ممتعضةً، أمّا نورة فاضت الدمعة في عينيها، فقد ذهبت أدراج الرياح خيالاتها العذبة وسعادتها بجديلتيها تضفيان على وجهها أنوثة وجاذبية.

تلك الخيالات التي طالما دغدغت إحساسها وحرّكت بأعماقها أمواجاً سحريةً خفيّةً تفيض أنوثةً، تنطبع على مرآتها ابتساماتٍ وعينين مغمضتين تخبئان أحلاماً سريّة. ولم يحدث

أبداً أن طلبت منها مرآتها يوماً أن تجّرب الإيشار على وجهها، كما تفعل بنات جيلها اللواتي يستعجلن الزمن ليصبحن صورةً مطابقةً لأمّهاتهنّ، بل كانت نورة إذ تغمض عينيها ترسم لنفسها صورةً مغايرة تماماً، فترى نفسها معلّمة جميلة تلبس الكعب العالي، وترفع شعرها على شكل كعكة كي لا يزعج التلاميذ حين تتمشّى بين مقاعدهم .

لم تكن أحلامها ورديّة كباقي البنات، بل كانت بيضاء كياسمينةٍ عانقت شجرة سروٍ وظلّت تصعد إلى الأعلى حتّى قبّلت هامتها، فتمايلتا معاً سعيدتين على ترانيم عيد الميلاد. كانت أحلاماً تشبه غيمة صيفٍ تسبح في سماءٍ زرقاء صافيةٍ، تستهوي النظر إليها من بعيد فتحرّك قرائح الرسّامين والشعراء، وتنتظر الشتاء لتنزل إلى الأرض مطراً وسقاء. وكانت تحلم بعريسها، تتمنّاه وسيماً حتى يليق بجمالها ورقيقاً كإحساسها، لكنّه كان حلماً مؤجّلاً، وأكثر لمعاناً من خاتم خطوبةٍ يشغل بال رفيقاتها في الصف السادس.

أخفت نورة دمعتها وابتلعت الغصّة، وقبلت الشرط. ولم تنظر إلى وجه أبيها الذي توعز نظراته بالخجل والخوف الشديد، بل نظرت إلى عينيّ أمّها فشاهدت فيهما لمعة الفوز وتذكّرت كلماتها "إن الطريق إلى أعلى وعِرٌ وصعب". وتذكّرت أيضاً دفء أصابعها حين أمسكت لها يدها سعيدةً بجلائها المدرسيّ الذي يعلن نجاحها بتفوّق، وكيف تعاهدتا يومها على تحمّل صعاب الطريق المؤدّي إلى متابعة تعليمها هي وأخواتها،

وكم تمنّت يومها لو أنّها تحصل على قبلةٍ منها... ذلك ما كانت شهلا تعتبره تدليعاً زائداً للأولاد، لا لزوم له.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

أحمد لم يكن ضابطاً في الجيش، لكنّه في قرارة نفسه كان يشعر بأنّ تلك الصفة تليق به كثيراً، فكان ينقل إلى بيته تلك المساحة الضيقة من الحوار، التي تصطدم دوماً بجدار(نفّذ ثمّ اعترض) كما يفعل الضباط الذين يلقون عليه الأوامر أثناء خدمته، هذا الشعور بالفوقيّة الذي نما بداخله مذ كان طفلاً يلعب مع أترابه، زرع أبواه بذوره فيه حين جعلاه الآمر الناهي في البيت، وعندما خرج من باب داره إلى دروب الحياة صار مثل ديكِ حجلٍ وُضِع يوم كان بيضةً تحت أنثى باشقٍ راقدة، فلا استطاع التحليق في السماء ولا رضي بالكرج مع أسراب الحجل، ما جعله يتمرّد على قدره التعس و على كلّ من يحلّق عالياً أمامه بدءاً من رجال الاقطاعيّ إلى رؤسائه في الجيش، فتوالت العقوبات عليه وصارت تنعكس تلقائياّ على حياته، حيث يتم نقله إلى أماكن بعيدة جداً كلما استقرّهو وأسرته في مكان جديد، ممّا سبب لهم الكثير من الضيق لتكرار تنقّلهم بين المحافظات أو إلى أماكن نائية تصعب فيها الحياة، حين تكون العقوبة أشدّ. الحياة القاسية هذه والإذلال الذي تولّده كلمة سيدي التي يستخدمها لمخاطبة رؤسائه، ذلك كلّه كان يزيده حدّة في الطباع ويترك في أعماقه خدوشاً تنزّ فتذكّره ببيئته الفقيرة التي نشأ بها، برجال

الإقطاعي وبوالده الذي كان ينصاع لأوامرهم مرغماً، وتعيد إليه صور بيت أهله الذي كان مملكته التي يحكمها بنفسه فتروق له الصورة ، ويثور في وجه زوجته كلّما حاولت نصحه بأن يرضى بواقعه.

وحين تستكين أمام ثورته فكأنّها قد سلّمت برفعته وعلوّ شأنه، وإذا بالبيت منفسه الوحيد وأرضه وملعبه، زرع في جوانبه الخوف والرهبة بصوته العالي ، وبالضرب احياناً إذا تجرّأ أحد أبنائه الصبيان على مخالفة أوامره، فبالرغم من كلّ ما يشوب أعماقه، إلا أنّه كان يحترم أنوثتنا ويرفق بضعفنا الجسديّ أمامه كبنات ويحافظ دوماً على تهذيب لسانه وألفاظه معنا جميعاً. ولا يتوانى في ساعات صفاء روحه القليلة، عن أن يغرف لنا ملعقةً من عسل حنانه المخبّأ في جرّة مغلقةٍ مركونةٍ في زاوية قلبه، يوزّعها علينا لعقاتٍ ضئيلة كي نظلّ في توقٍ دائمٍ لطعمها اللذيذ ويضمن بذلك استمرار خضوعنا لشدّة هيبته ووقاره، وقد كانت ملعقة العسل هذه تمدّنا بطاقة أمانٍ هائلة لعلمنا أنّها دوماً بمتناول يد أمّنا شهلا التي تحمل مفتاح قلبه . والتي كانت تكثر من توصياتها إلينا كي تبرهن له أن المفتاح بيدٍ أمينة. فمن المعيب أن نرفع صوت ضحكاتنا أثناء وجوده في البيت ومن المعيب أن ندندن الأغاني التي تحكي عن الحبّ، أو أن نتودّد بعضنا لبعض، فكانت الجدّيّة هي الطابع الذي يجب أن يغلب علينا ويسود البيت.

صارت الرحلة في حافلة القرية لحظاتٍ من النعيم الأبديّ بالنسبة إلى سالم، كيف لا وابنة عمّه نورة تشاركه فيها لمدّة عشر دقائق كلّ يومٍ إلى القرية المجاورة. فأصبح يستيقظ مبكّراً، يرتدي بدلة المدرسة الثانويّة ذات اللون الجيشيّ، يمشّط شعره، ينظر في مرآة البيت الصغيرة مستاءً لأنّها لا تفي بالغرض، فينزعها عن المسمار الذي يحملها في الجدار جانب الباب، ينقلها إلى الأعلى والأسفل بسرعةٍ ليتأكّد من أناقة ونظافة هندامه، وعندما يصل بها إلى حذائه يتنهّد بأسىً أنّه صار قديماً جدّاً، لكنّه الفقر... فيتعهّد في سرّه أن يعوّض نورة في المستقبل عن هذا الفقر كلّه بالحبّ والسعادة التي صار يحلم بها مذ انتبه إليها للمرّة الأولى منذ عامٍ تقريباً. كانت طفلةً في الصف السادس الابتدائي، لكنّه رآها جميلةً كملاكٍ نزل من السماء. عذبةً كنسمة الصيف الغربيّة التي تدخل من شبّاك مضافة أبيه، رقيقةً وساحرة كالوردة المتفتّحة توّا أمام بيتهم الصغير.

يعيد سالم المرآة إلى مكانها ويخرج مسرعاً قبل أن تمتلئ مقاعد الحافلة المتوقّفة في أوّل القرية بالركاب، فيحجز مكاناً لمحبوبته السريّة التي تنتظر في مكان أبعد حيث تصل إليها المركبة متثاقلةً كحاملٍ اقترب موعد ولادتها، تصعد نورة مرتدية بدلة المدرسة وحذاءً ليس أفضل حالٍ من حذاء سالم، تقترب وسط هذه الزحمة غير ناسيةٍ وصيّة والديها أن يبقى نظرها إلى الأسفل ما استطاعت، لأنّ الخجل هو العلامة

الأجمل، وأنّ هذا الإيشار الذي تمقته ما هو إلّا دليلٌ على أنّها من عائلةٍ محافظة.
يناديها سالم وشرارة الفرح تتطاير من عينيه الواسعتين:
-تعالي يا ابنة عمي واجلسي مكاني.
فيأتي صوته إليها كأهزوجة فرحٍ تهزّ أوتار قلبها وتنسى معها كلّ الوصايا والعهود التي قطعتها لوالديها، ترفع نظرها إليه تقابل ابتسامته الجميلة وعينيه اللامعتين بابتسامةٍ خجلى وعينين ضاحكتين، وعندما تجلس تتصاعد دقّات قلبه غبطةً .
تصل نورة إلى مدرستها وتودّعه بابتسامةٍ أخرى، فيعود إلى مكانه ويكمل مشواره غير شاعرٍ بالوقت، شارد الذهن غارقاً بأحلامه السعيدة.
بينما يشرد ذهن نورة أثناء الدرس وتتزاحم الأسئلة في رأسها "لماذا هي سعيدة كلّ هذه السعادة وما سرّ هذه الابتسامة الجميلة على وجه سالم؟ أتراه يحبّني؟ هل رآني جميلةً وأنا أرتدي هذا الإيشار المقيت؟ هل يجوز أن أخلف الوعد الذي قطعته لوالديّ؟ هل أكون مخطئةً عندما أرفع نظري إليه وأبادله الابتسامة؟ وماذا سيظنّ بي سالم حين يرى هذا الفرح الذي يعتريني حين ألقاه؟

.....

ارتجفت يدُ سالم واضطرب نبضه حين امسك القلم والورقة يريد أن يكتب لنورة كلمة واحدة تخبرها أنه يحبها.

وحين سنحت الفرصة لنورة أن تفتح الورقة بعيداً عن عيون أسرتها وضجيج إخوتها وقعت عيناها فوراً على كلمة
أ...ح...ب...ك...
وبسرعة البرق شخصت لناظريها نظرة أبيها المتجهّمة وإصبعاه اللتان تومئان أمام وجهه بالنذير والوعيد، فكادت أن تنهار من الخوف إلّا أنّها تماسكت قليلاً حين تذكّرت وجه سالم الجميل وابتسامته العذبة، ولكن كيف له أن يدفع بها إلى ارتكاب جريمةٍ كهذه بأن تقبل رسالته وتسكت عنها
وقبل أن تعيد قراءة الكلمات مرّةً أخرى جاء صوت أمّها يناديها فأسرعت بتمزيق الورقة نتفاً صغيرةً وجعلتها تطير مع الريح كي لا تكون دليلا على فعلتها ريثما تعرف ماذا ستتصرّف إزاء هذه الورطة الكبيرة، عادت فوراً إلى أمّها تلبي أوامرها دون أن تنظر في وجهها كي لا تلاحظ الأخيرة أيّ زلزالٍ يعتري حال ابنتها ذات الثلاثة عشر عاماً، فهي مشغولةٌ بأطفالها وشؤون أسرتها التي تحاول أن تعبر وأيّاهم من تحت خطّ الفقر بسلام.
تنفّست الصعداء حين وجدت أن طلب أمّها هو أن تجلب لها دلو ماءٍ من خارج البيت فهذا عملٌ يمكن إنجازه بيدٍ واحدةٍ كي تبقى يدها الأخرى مطبِقةً كفّها على قطفة الحبق التي وضعها سالم بين طيّات الرسالة، وبسرعة البرق ناولت أمّها ما تريد وذهبت إلى الغرفة الثانية حيث تضع هي وإخوتها كتبهم ودفاترهم ، سحبت دفتراً زهريّ اللون تم تغليفه بأناقة وترتيبٍ، جعلته دفتراً خاصّاً بها تربطها به علاقةٌ حميمةٌ خاصةٌ جدّاً، تفرغ فيه ما يفيض بصدرها من مشاعر وأحاسيس بأسلوبٍ مبدع ورثته عن أمّها وأبيها معاً، اللّذَين

لطالما نظما الشعر المحكي منذ طفولتهما وأبدعا فيه دون أن ينتبه أحدٌ إلى موهبتهما فضمرت مع الأيّام وهموم الحياة.
فتحته بسرعة، وضعت بين صفحاته قطفة الحبق بعد أن مرّرتها فوق شفتيها واستنشقت عطرها بعمق وهي تغمض عينيها، تخيّلت أصابع سالم النحيفة وابتسامته التي تأسرها، وعينيه اللتين تبعثان لها رسائل الحبّ الصامتة . ثمّ عادت إلى أمّها وهزّات الزلزال الارتدادية مازالت تؤرجح قلبها الصغير.
حين صعدت إلى الحافلة في اليوم التالي كان سالم ينتظرها بلهفةٍ ليقرأ الإشارات التي ستصله من عينيها ووجهها جواباً لرسالته بالأمس. وكان قد حجز لها مكاناً كالعادة وناداها كي تجلس مكانه، حين اقتربت منه شعر برائحة الحبق تفوح حولها وكأنّها اغتسلت بمائه فجذبت إليها كل الفراشات الملوّنة ترفرف حول عينيها المضيئتين بنور الحبّ والسعادة، لكنّه طمع برشفةٍ صغيرةٍ من الرحيق الذي سيقطر من صوتها، فسألها:
- لقد أرسلتْ أمّي لأمّكِ بالأمس أصيص فيه شتلة حبق مع أختي الصغيرة، فهل أوصلته دون أن تعبث به على الطريق؟
جاوبته وابتسامةٌ خفيفة الظل تعتري عينيها :
- اطمئن فقد وصل بخير، وفرحت به أمّي كثيراً، وضعته على الشباك الغربي لنشتمّ رائحتها كلّما قمنا بسقايتها عند المساء، ضحك سالم بقلبه قبل وجهه وقال:
-مبروكةٌ عليكم هي وعطرها.

وصارت رسائله بيد أخته تصل إلى نورة كجدول ماءٍ صافٍ يترقرق بين صخورٍ عالية، تغسل منه وجهها فتتفتّح أزرار الجوري على محيّاها، إلّا أّنها لم تجرؤ يوماً أن تمسك القلم لتردّ عليه بحرفٍ واحدٍ.
انقضى العام الدراسي الأوّل في المدرسة الإعداديّة وأتت العطلة الصيفيّة تحمل بين طيّات أيّامها الحارّة النذير بالشوق الحارق واستغربت أم عامر هذا الحماس الذي نزل على ابنتها نورة هذه الأيّام، حيث صارت تحمل جرّتها وتذهب إلى البركة لجلب الماء دون أن تنتظر أن يطلب والداها منها ذلك، بعد أن كانت تمتعض كثيراً من هذه المهمّة الشاقّة التي تصعب على أمّها صاحبة القلب المتعب والمريض، ما يضطر والدها أن يأمرها بها بنبرة لا يجدي فيها أيّ جدال، وقد جعل منّي رفيقتها على درب الماء، فأوامره تقتضي أن لا تسير صبيّةٌ كنورة في دروب القرية وحيدةً ، ساعيا بذلك لقطع شكّ المجتمع الذي يتربّص في زقازيق القرية مجهَّزاً بألسنةٍ طويلة وقد كنت آنذاك طفلةً لكنّي كنت ألحظ بفطرة الأنوثة طيفاً من الفرح والميول إلى نورة في نظرات سالم حين نقبل نحوه.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

وصلنا إلى البيت أنا ونورة بالكاد نلتقط أنفاسنا فحملنا الثقيل وطول المسافة قد نالا منّا حتّى علا صوت لهاثنا، وكنّا قد أخذنا استراحةً قصيرةً أمام بيت سالم حيث اعتاد أن يتمشى أمامه جيئةً وذهاباً عند المساء، كنّا نلقي عليه التحية ونسير مسرعتين ذهاباً، أمّا في العودة فنتمهّل لنقوم بتبديل حملنا من

جهةٍ إلى الأخرى، فتتوقّف نورة والابتسامة تعلو محيّاها، تأخذ نفساً عميقاً فيه نكهةٌ من دلع البنات و هي تنقل جرّتها من كتفٍ إلى آخر. بينما سالم يرقبها بحذر فيغضّ البصر لبرهةٍ قصيرةٍ كي لا يلفت نظر المارّة ثمّ لا يلبث أن يرسل لها ابتسامةَ حبٍّ وإعجابٍ سريعةٍ تجعلها تعود إلى السير بخفّةٍ كفراشةٍ تطيّرها نسمةُ الغروب وكنت أسير برفقتها أتوقّف حين تتوقّف لأبدّل حملي الثقيل من يدٍ لأخرى، فقد أعدّ لي والدي لهذه المهمّة تنكةً صغيرةً تُحمل باليد، وكم كنت أشتهي أن يشتري لي جرة صغيرة أحملها على كتفي وأمشي بها على درب بركة الماء كالصبايا، إلّا أن أمّي كانت تخبرني أنّ مرتّب والدي لا يحتمل أن ينقص ليرةً واحدةً لسببٍ غير ضروريّ، فكيف و ثمن الجرة ليرتان ونصف؟؟...

ما لم تتوقّعه نورة أن تكون أمّي قد علمت بحلمها الجميل الذي تخبّئُه بين جفنيها، فقد وجدناها بانتظارنا تقف في فناء الدار تحمل أخي الصغير، انتظرت إلى أن أفرغت نورة حمولتنا من الماء في البرميل وهمّت بالعودة لجلبها مرّةً أخرى فنادتها قائلةً أنّه لا داعي للعودة يكفي اليوم ما أحضرناه من الماء، لكنّ نورة أصرّت على أنّه مازال هناك متّسعٌ من الوقت يمكّننا من إحضار المزيد قبل غروب الشمس، قالت ذلك دون أن تنظر في وجه أمّها فقد خشيت أن تلاحظ على وجهها علامات لا توحي بالحماس لجلب الماء إنّما لأمرٍ آخر، ردّت أم عامر بلهجة الأمر التي لا تخلو من لثغة غضبٍ خفيفةٍ:

-تعالي إلى الداخل فإنّي أريدك لإمرٍ هامّ.

نظرت نورة في وجه أمّها فإذا به ينذر بشيءٍ من الغضب الذي خبرته جيّداً في عبسة عينيها حين تريد أن تنهيها عن

أمرٍ معيب، فتسارعت دقّات قلبها وتورّد الدم في خدّيها ومرّ شريطٌ سريعٌ في خيالها يتضمّن أخطاءها الفادحة التي ترتكبها سرّاً عن أمّها، بدايته أوّل ابتسامةٍ قابلت بها سالم، إلى ما تكتبه على الدفتر الزهريّ من عباراتٍ تفيض بالمشاعر المحرّمة. لكنّها حاولت بسرعةٍ وارتباك إخفاء هذا الشريط بداخلها بعيداً عن نظر أمّها، التي هونت عليها ذلك حين أدارت لها ظهرها ودخلت أمامها إلى البيت، تبعتها نورة بانفعالٍ أخفّ، وعندما صارتا متقابلتين بادرت الأمّ السؤال بلهجة التحقيق:

-أخبريني أيّ دربٍ تسلكين عادةً إلى بركة الماء؟

ردّت نورة بارتباك طفوليّ واضح:

-ها أيّ درب؟ الدرب ذاته.

-أقصد هل تمرّين من أمام بيت عمّك أبي سالم؟

-ها؟ أحياناً.

-لا ليس أحياناً بل كلّ الأحيان.

قالت ذلك وحاجباها يكادان أن يتّصل أحدهما بالآخر فيصبحان خطاً مستقيماً فوق عينيها اللتين اتسعتا حتّى أصبحتا مدوّرتين كحلقتين ، ما يوحي بمشاعر متعدّدة امتزج فيها الغضب واللوم ، هذه النظرة أربكت نورة وشعرت أنّها تريد البكاء والاعتذار قبل أن تعترف لها بأفعالها الشائنة، فردّت بصوتٍ خفيفٍ وخجول:

-نعم كلّ الأحيان.

وسكتت دونما جواب عندما سألتها عن عدم اتّخاذها الدرب المختصر دون المرور من أمام بيتهم ، وحين أخبرتها أنها

باتت على علم أن سالم يكون بانتظارها هناك ليتبادل معها النظرات والابتسامات .
طأطأت نورة رأسها ،فبدلّت أمّ عامر لهجتها إذ عصفت بها موجة أمومة دفعتها رياح الحنان والعطف حين لاحظت أن ابنتها ستنهار حتماً من شدة الخجل والخوف اللذين جعلا وجهها يصّفرّ وعينيها تبهتان، فغيّرت لهجتها وقالت :
-نورة اسمعيني جيّداً يا ابنتي ...أنا أعرف أنّك صبيّةٌ جميلةٌ، وقد علمتِ أنّه تقدّم لخطبتك العديد من العرسان الذين سمعوا عن أدبك الزائد وأخلاقك الحميدة، وعلمتِ أيضاً أنّ والدك قد رفضهم دون أن يسألك. هل تعلمين لماذا؟
ظنّت نورة أنّ أمّها ستخبرها أنّها ما زالت طفلة، وأنّ طريق الحياة ما زال في خطوته الأولى وأنّ الصعود في درب التعليم الذي تعاهدتا عليه في الأمس القريب يجب ألّا يتعثّر بقصص الحبّ والزواج، فرفعت رأسها تعبيراً عن شعورها بالأمان ونظرت في وجه أمّها الذي انفردت أساريره نوعاً ما رأفةً بحالها.
إلّا أنّ جواب أمّها كان مغايراً تماماً، فقالت:
-لأنّ كلّ العرسان الذين تقدّموا لخطبتك هم غير مناسبين لنا ولك، فإنّ طموحنا أنا ووالدك يتعدّى هؤلاء الفلاحين والفقراء. والدك يطمح بأن يزوّجك من شخص ينتمي إلى عائلةٍ تتمتّع بمستوىً ماديّ مريحٍ على الأقل، حتّى لا تذوقي طعم الفقر الذي قرّح أجسادنا.

بعد برهةٍ قصيرة استطاعت نورة النظرفي وجه أمّها، حاولت أن تخبرها أنّها تحبُّ سالم وهو يحبّها وهذا يكفي برأيها لكنّ خجلاً شديداً منعها من البوح .

وحين حلفت لأمّها أنّها لم تلتقِ بسالم على انفرادٍ أبداً، صدقتها أمّ عامر فهي لم تخطئ يوماً في قراءة عيون أولادها، لكنّها طلبت منها أن تنتزع هذا الحلم من خيالها نهائيّاً، فالطريق أمام سالم طويلٌ وصعبٌ وإنّ إصرارها عليه سيجعل والدها يشعل حرباً في البيت.
احست نورة بالهلع حين استشعرت طوفان الغضب الذي سيحلّ على البيت و تذكّرت مجدّداً نظرة أبيها المتجهّمة ، فلم يبقَ أمامها إلّا الحلفان ببراءتها من كلّ الظنون التي تدور في بال أمّها والقسم بوعودٍ قاطعة بطرد تلك الأفكار من رأسها نهائيّاً. واختلجت في أعماقها أمنيتها الأعذب أن تحضنها أمّها لتقبّلها وتخبرها أنّها ما زالت طفلة، إلّا أنّ أم عامر كانت تحاول دوماً أن يطغى الوقار على تصرّفاتها وأن تحافظ على هيبتها أمام أولادها رغم كلّ الحنان الذي تبعثه لهم ملفوفاً بالدعاء، وكانت تعلم في قرارة نفسها أنّ زوجها يمنّي نفسه بعريسٍ لابنته من طبقةٍ تسمح له بدعمهم مادياً ،وأن يتمتّع هذا العريس بمكانةٍ تمكّن أبا عامر من التباهي به أمام المجتمع.
فلم تلمّح لابنتها عن أنّه من المبكّر جدّاً الحديث عن العرسان، لأنها تريد من نورة أن يلازمها الشعور أنّها أصبحت صبيّة كي تتحمّل مسؤوليّة تصرّفاتها ولا تستغرب من أمّها إن هي وافقت على عريسٍ مناسبٍ، فالحمل قد ثقُل

عليها كثيراً مع ازدياد عدد الأولاد، والفقر يضيّق مدى أحلامها بهم، وإنّ خروج نورة إلى دائرةٍ جديدةٍ قد يسمح لأمّها وإخوتها بالتحرّر قليلا.
''''''''''''''''''''

في المساء تركت نورة سهرتنا والفراشات الملوّنة التي تحوم حول ضوء المصباح، وذهبت باكراً وبصمتٍ إلى فراشها قبل أن يفكّ أحدٌ منا رموز صمتها وشرودها.

وقبل أن تخلد إلى النوم وعدت دفترها الزهريّ أنّها ستخبره غداً في ضوء النهار عن أولى خيباتها، أمّا الآن وقد لفّ الظلام الغرفة التي تنام فيها هي وأخواتها البنات فلا من سبيلٍ لنورٍ يمزّق الستارة التي انسدلت على عينيها وقلبها معاً وليس في دارنا إلّا مصباح الكازِ الوحيد ، يعلّقه والدي في حلقةٍ حديديّة تتدلّى من سقف البرندة الممتدّة أمام غرف الدار.
سهرنا مجتمعين كعادتنا في ليالي الصيف حيث يعلو صوت والدي وهو يحكي لنا عن مغامراته في رحلته للعمل في فلسطين وعن المصاعب التي تعرّض لها فجعلت منه رجلاً حقيقيّاً، وقد يروق له في بعض الأحيان أن يسمعنا بصوته الحنون بعضاً من قصائده التي نظمها يوما تغزّلاً بحبيبته ويخبر أمّي بابتسامةٍ أنّه لم يبقَ في باله منها إلّا هذه الكلمات فقط.
فيعتريني سؤال سريّ: أهذا هو أبي الذي يهدّ ويرعد في النهار ولا يسمح لصوتنا أن يعلو ولا نجرؤ أن نملّك نظرنا من وجهه وعينيه الغاضبتين لأتفه الأسباب؟

لم تجرؤ أم سالم على البوح بحرفٍ واحدٍ عن فرحتها حين وجد ابنها عروسة المستقبل عند بيت ابن عمّها أحمد، فهي تعرف صعوبة طباعه، وكان أملها بنورة كنّةً لهم يضعف حين تلاحظ اعتداده بنفسه اعتداداً قد يصل أحيانا إلى درجة الغرور، لكنّها تعود وتشدّ من أزرآمالها حين تلمس طيبة أمّ عامر ومحبّتها وتتذكّر ما بينهما من ذكرياتٍ حلوةٍ ومحبّةٍ .
فازدادت زياراتها إلينا وكثرت هداياها مما ولّدَ القلق والخوف في أعماق أمّي وصار يطفو احمراراً على وجهها وارتباكاً بيديها عند استقبالها لها وقبول الهدايا، فهي تعرف حجم كتلة النار المشتعلة باللوم والغضب التي سيلقيها أبي في البيت إن شعر بما يدور في بال المرأة وابنها، فصارت تكثّف حذرها حتّى انقطعت رسائل سالم إلى نورة وأصبحت تعود إليه بيد أخته تماماً كما طواها بيديه، وعادت نورة إلى درب الماء المختصر.

وفي بيتنا البعيد عن السكن حيث بناه والدي في كرم العنب والذي كنّا نسمع فيه أصداء أصواتنا ونتوق لجيرانٍ نأتنس لأصواتهم ونلعب مع أولادهم، لم يكن هناك من ونيسٍ لنورة سوى دفترها الذي صارت تخفيه عنّا طيّ المفروشات قليلة الاستعمال إلى أن تسنح لها ظروف البيت فرصة الانفراد به والبوح له بما يمور في صدرها من مشاعر وأحلامٍ سريّةٍ.

وذلك بعد أن تكون أمّي قد استيقظت مع الفجر وقامت بحلب عنزاتها الأربع وإرسالها إلى الراعي، ومن ثمّ قامت بجولةٍ لمساعدة أبي بقطف ثمار ما زرعه حول الدار، وأيقظت نورة للمباشرة في أعمال البيت من تسخين الماء لغسل الثياب وجلي الأواني وتنظيفٍ وإطعام...

وحين تنتهي من إطعام أسرتها وجبة الغداء الرئيسّية بعد عودة أبي من جولته اليوميّة التي اعتادها لزيارة أهله وأصدقائه، تلتقط أمّي أنفاسها ويتمدّد أبي ليستمع إلى نشرة الأخبار في الراديو فيعلو صوت شخيرهما وتصبح الفرصة مواتيةً لنورة لتمسك بدفترها والقلم والمحبرة اللّذين خبّأتهما عنّا

تفتح صفحةً جديدة ويسترسل القلم بين أصابعها في الحديث عن عشقٍ صافٍ يملأ روحها لم يختلط فيه إلّا بعضٌ من خجل، وعن ابتسامة سالم ونظراته التي تبوح لها بحبٍّ كبير، تحكي له كيف أنّها تراه أجمل شابٍّ صادفته ، فإنّ طول قامته المعتدل ونحافتها مع وجهه الأسمر وشعره الأسود اللامع الممشّط للخلف عن جبينه العالي، وعينيه السوداوين الواسعتين واهتمامه الواضح بهندامه، وهدوءه وصوته الرجوليّ الذي ينمّ عن شخصيّةٍ واثقة، كلّ ذلك جعله فتى أحلامها الذي سكن قلبها وخيالها، فتحلّق مع أحلامها العذبة إلى فضاء لامتناهٍ من السعادة، لكنها سرعان ما تعود الى الارض حين تتذكّر تحذيرات أمّها من هذه الأحلام الممنوعة ونظرة أبيها الحادّة، فيعتريها الخوف وتطبق الدفتر وتعيده إلى مخبأه السريّ

.....

لم يعد سالم يحجز مكاناً لنورة في الحافلة مع بداية العام الدراسيّ الجديد، فقد استأجر غرفةً في المدينة كي يتمكّن من العمل بعد الظهر لتوفير مصاريف الدراسة، وصارت زياراته للقرية قليلةً جدّاً،وعادت نورة إلى المدرسة في الصف الثاني الإعداديّ بإنجازٍ كبير، فقد استطاعت أمّها أن تقنع والدها بأن يتخلّى عن فكرة ارتداءها للإيشار، حيث لاحظ ازدياد أعداد البنات اللواتي يتنقّلن في القرية سافرات الرأس، وقد عزّز موقفه نجاح نورة وأدبها الزائد الذي شهد به مدير المدرسة حين أخبره أنّ ابنته إضافةً لاجتهادها ونجاحها الدراسيّ فهي مؤدّبة وشديدة الخجل، هذه الشهادة التي طالما تغنى بها والدي على مسامعنا ، ولم تقلّل أمّي من شأن هذا، بل كان بالنسبة إليها اعترافا من ابي بنجاحها في تربية بناتها .

ومرّت الأيّام ثقيلةً بدون سالم، أصبحت رحلة الحافلة بأصواتها العالية وأحاديث ركّابها التي تخترق هدوء الصباح، وروائح أجساد الفلّاحين مزعجة بالنسبة إلى نورة، تجعلها تتنّفس الصعداء حين تنقضي الدقائق العشر التي كانت تمرّ بلمح البصر برفقة سالم.

جدائلها السود تتدلّى على صدرها وكتفيها بحريّةٍ ،وانسياب شعرها حول وجهها منحها مزيداً من الأنوثة ازداد معه توقها للحرية والانطلاق ، طيف سالم يرافقها، أحلى أمنياتها أن تلتقي به حين يكون عائداً من زيارة أهله في عطلة نهاية الأسبوع، يكون ذلك مرّةً في الشهر أو الشهرين، للحد من مصاريف التنقّل المرهقةُ.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

وبين العامين الدراسيين من الثاني إلى الثالث الإعدادي ،ثلاثة أشهر أمضتها نورة حبيسة البيت خلف نول السجّاد لا تفارقه إلّا لتتناول طعامها، لا تعرف ما يجري خارج البيت ولا تترك نولها لاستقبال زائرٍ أو زائرة وكأنّه محكوم عليها بالسجن عقوبةً على نجاحها في المدرسة ورفضها خاتم الخطوبة، ذلك المشروع الذي اقترحته جدتي أمّ صالح امرأة حياكة البسط والسجاد الأولى في القرية، لاستثمار طاقة ووقت الطفلة في امور تعود بالفائدة على أهلها وتشغلها عن التفكير بأمور محرّمة.

فكان الضيق والكآبة رفيقيّ نورة، لا ينير عتمة روحها إلّا صوت الراديو حين يسمح لها أبي به بين نشرات الأخبار. إلى أن أُنزلت السجادة الكبيرة عن النول وانزاحت معها غمامةٌ سوداء عن روحها وقلبها الصغير وبدأت بالتحضيرات لعامٍ جديدٍ ستنال معه الشهادة الإعداديّة التي ستفتح لها باباً جديداً لتخطو خطوةً أخرى على درب الحبّ الذي ستكمله مع سالم....

.....

ارتعش خوفاً قلب سالم وضاقت الدنيا بوجهه وأحسّ أنَّ أحداً سوف يأخذ حبيبته منه على حين غرّة حين سأل أمّه عن أخبار نورة وأهلها فأخبرته عن كثرة العرسان الذين يتقدّمون لها من داخل القرية وخارجها.

كانت ليلةً طويلةً لازمه فيها القلقُ ، تقلَّب على فراشه في بيت أهله حيث أتى يحدوه أملٌ ضعيف أن يتمكّن من رؤية نورة ولو من بعيد...

حين طلع الصباح وانتشله من الوحدة والهواجس التي بعثتها أخبار أمّه، قرّر أن يذهب لزيارة عامر عسى أن يحالفه الحظّ برؤية نورة، ولم يكن يعلم أنّ أبواب السماء كانت مفتوحةً حين كان يناجي ربّه طوال الليل ويدعوه أن يفتح له باباً تكون هي خلفه. حين وصل فناء الدار ندَهَ لعامر بصوته الذي لا يمكن لنورة إلّا أن تميزه من بين آلاف الأصوات، سمعته وكانت تختلي بالمضافة مع إحدى كتبها من منهاج الصف التاسع والكثير من الحبّ والأشواق. هبَّت واقفةً أمسكت بقلبها الذي كاد يطير من الفرح. فتحت الباب، ابتسمت له ابتسامةً أعادت له فرح زمن درب الماء ورحلة الحافلة وعندما مدَّ يده ليصافحها شعر أنّه أمسك قبضة باب الجنّة، فأسرع مستغلّاً الفرصة قبل أن يشعر بوجوده أحد وهمس لها (إيّاك أن توافقي على أيّ عريس) هزَّت نورة رأسها ايجاباً وقد احمرّت وجنتاها خجلاً، أسرعت تنادي عامر الذي استقبله مرحّباً ومشتاقاً.

أثناء جلستهما وتبادل الأحاديث أخبره عامر أنّه ينوي ترك المدرسة والالتحاق بمدرسة الشرطة اختصاراً للوقت، للإسراع في استلام راتبٍ من الدولة يغطّي مساحةً ولو ضئيلة من الفقر المهيمن عليهم وحاول ترغيبه بالأمر ليكونا رفيقين على نفس الطريق إلّا أنَّ سالم أخبره أنَّه يطمح أن يتابع دراسته أملاً في أن يصبح معلماً، وأتت أمّ عامر بصينيّة الشاي لتسلّم على الضيف الذي تحبُّه وتشتاق لرؤيته مثل ابنها لشدّة أدبه وتهذيبه، فوجئت بعامر يطلب منه أن يساعد نورة على حلّ مسألة رياضيّات صعُبت عليها وعليه، فسكتت

وحمدت الله أنَّ أبا عامر غير موجودٍ في الدار وإلّا كان الموقف مأزقاً حقيقيّاً.
عندما جلست نورة بالقرب من سالم اشتمّت رائحة عطرٍ ناعمٍ، وحين نظرت في وجهه الذي أغرقه الخجل ممّا قد يظهر عليه من حبٍّ وهيام أصابتها عدوى مماثلة فارتبكت وفتحت الكتاب بيدين مرتجفتين وصارت تتأتأ الحروف وتسأل دون أن ترفع نظرها بوجهه، انقضت ساعةٌ كأنّها ثوانِ وانتهت الأسئلة على مرأى ومسمع أمّها وأخيها، فغادرت المضافة بعد أن تشكّرته. سمعت أم عامر موسيقا الحبّ التي يعزفها قلب ابنتها فحملتها الذكرى إلى الوراء أكثر من عشرين سنةٍ يوم عزف قلبها ذات النغم لأحمد و كيف رقصت بكل حواسها معه، ثمّ فكّرت بما وصلت إليه جرّاء تلك الرقصة الطويلة دون أن تشعر، ها هي اليوم تتقاذفها أمواج أحمد المتقلّبة عناداً ومزاجيّةً، وأناه الموغلة فيه حدّ الغرور وعصبيّته المفرطة، عدا عن بساط الفقر المهترئ الذي أنهكها إصلاحه، ترفوه من جانبٍ ليتمزّق من الآخر ومع أنّ ذلك كلّه لم يُخفِت صوت قلبها الذي يدندن اسمه على الدوام، إلّا أنَّها لم تكن تريد لابنتها أن تغمض عينيها هي الأخرى وتمشي على ذات الدرب، بل ستوجّه لها البوصلة التي مازالت بيدها توجيهاً آمناً. لكنها تركت نورة لأحلامها وألحانها لا تريد أن تشوّش عليها انهماكها بالدراسة.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

اجتازت نورة امتحان الشهادة الإعداديّة وأملها بالنجاح كبيرٌ وأحلامها بسالمٍ تزداد بياضاً ونصوعاً، فبعد مدّةٍ سيتقدّم هو

لامتحان الشهادة الثانويّة ليقطعا مسافةً لا بأس بها نحو الهدف المنشود.
وصار بحوزة نورة متّسع ٌأطول من الوقت أمام مرآتها تتأمّل جمالها، تقلّب شعرها على جانبي وجهها، ترفعه إلى الأعلى فتشعر بكبرياء الملكات، تنزله على كتفيها فتفيض أنوثةً. ثمّ خطر لها أن تطويه حول وجهها فتخيّلته قصيراً يظهر استدارة وجهها وحلاوته، وبعد توسّلاتٍ كثيرة لأمّها وأبيها وافقا على ذلك ممتعضين، فساعدتها أمّي وقّصته لها بطولٍ واحدٍ يكاد لا يغطّي رقبتها بالكامل، لكنّه لم يأخذ مع خصلاته السود التي خبّأتها أمّي في مكانٍ أمين شيئاً من جمالها، بل زادها سحراً وجاذبيّة مختلفة.
وحين طلبت لها أمّي الإذن لتحضر حفلة خطوبة هايل ابن عمّتها أم يوسف وهو ضابط في الجيش يصغر أمّي بسنواتٍ قليلةٍ، وافق أبي ورحّب بفكرة ذهاب نورة إلى المدينة مع المعازيم على غير عادته. فإنَّ شرفاً كبيراً قد وصله إذ وُجّهت إلى أسرته دعوةً لحضور مناسبة كهذه، فذلك يعني له الكثير ويسعده أن يلبّي دعوة ضابطٍ، وأن تطأ قدمه هو أو أيٍ من أفراد أسرته هذا البرج العالي الذي طالما حلُمَ أن يصل إليه أحد أبنائه بعد أن عجز هو عن ذلك وعجز أيضاً عن إقناع عامر في أن يجعل هذا المنصب طموحاً يسعى إليه.
ارتدت نورة ثيابها الجديدة التي اشتراها لها أبي من المدينة غيابيّاً حسب ذوقه لزوم الذهاب للامتحان، وضعتْ قليلاً من المكياج المتوفّر لدى أمّي والمقتصر على علبة من بودرة كحل العيون يتوسّطها ميل الكحل الذي ما إن مرَّرته بين جفنيها حتّى لمع سواد عينيها أكثر، وقلم حمرة يوشك على

النفاد منذ فترةٍ ليست وجيزة استخرجت منه القليل ولوّنت شفتيها به فازدادت إشراقاً، وبدت جليّةً واضحة يناعة وجنتيها ونضارة بشرتها الطفوليّة، وذهبت إلى الحفلة مع الذاهبين ، وعادت سعيدةً تخبر أمّي عمّا رأته من حضورٍ وعن الملابس الجميلة التي ترتديها الحاضرات من أهل المدينة وعن الإعجاب الذي لاحظته في عيون الجميع نحوها حين لم تستطع أن تردَّ دعوة أخوات العريس لها لترقص في الحلقة وقتاً قصيراً.

لم تطُل فترة خطوبة الضابط هايل على بنت المدينة فلم يحصل الوفاق وتمّ فسخ الخطوبة بعد شهرٍ واحد. وبدأ الأهل فوراً في البحث عن عروسٍ أخرى فوقع خيارهم على نورة التي كانت نجمة حفلة خطوبته السابقة، وانطلق موكب الخطّابين المؤلّف من أمّ يوسف وأبي يوسف وابنتهم التي تجايل شهلا عمراً وما تزال قابعةً في بيت أبيها تحلم بعريس،يرافقهم هايل ببدلته العسكريّة الصيفيّة استقبلهم أبو عامر يسكب لهم القهوة المُرّة فيخيّل إليه أنّها ترقص فرحاً في قعر الفنجان، يخاطب نفسه: "هيّا يا أبا عامر هذه هي الساحة وهذا هو الميدان فقد حان الوقت لتصفّي كلّ حساباتك القديمة يا ابن المرابع ، فتعبرُ من أمام عينيه وجوه كلّ الضباط الذين مرّوا به أثناء خدمته المسلكيّة. ويتمنّى لو يعود به الزمن ليقول لهم تعالوا وانظروا هذا ضابط مثلكم يجلس في مضافتي يبتغي إرضائي وموافقتي على أن أزوّجه ابنتي، وهذه أم يوسف التي فعلت كلّ ما بوسعها لتمنع أخاها من مصاهرتي قد جاءتني اليوم متودّدةً تطلب منّي أن أوافق على مصاهرتها.

تقدَّم الأهل بطلب يدِ نورة، كان الفرح يغمر وجه أبي عامر الذي لم يتردّد أبداً في الترحيب بهم ووعدهم خيراً من دون أن ينظر في وجه زوجته ليعرف انطباعها.
لم تكن أم عامر تريد من زوجها أن يرفض طلب هايل وأهله كما رفض الذين من قبلهم، هي فقط كانت تريد ألّا يظهر لهم انفعاله وفرحه بهم بهذه السرعة ،حتّى وإن كان هايل ابن عمّتها ،فهي تقصد بذلك نوعاً من الرزانة المطلوبة من أهل العروس وهذا أمرٌ لا يخفى على أبي عامر، لكنّ بريق النجوم على كتفي العريس كان أقوى فسيطر على حواسه،ولم يرَ معه الوجه الذي يوحي برجلٍ تجاوز الثلاثين عاماً يريد الزواج بطفلةٍ لم تكمل عامها السادس عشر بعد. وكان هو وأمّ عامر متفقان أن يبقى مركب نورة تحت سيطرتهما والمجداف في أيديهما يوجّهانه حيث يجدانِ الطريق الأنسب، ونوره تقبع في زاويته مكبّلةً بالخوف والخجل، كلّ الوجوه حولها مقطّبةً بالجدّيّة المفرطة وليس من وجهٍ باسمٍ إلّا وجه سالم الذي تراه إذ تغمض عينيها.
طأطـأت رأسها واحمرَّ وجهها خجلاً حين أخبرها والدها أنّه وافق على خطبتها لهايل، برّر ذلك بأنّه يعرف تماماً ما تعنيه كلمة ضابط من ميّزاتٍ سوف تتمتّع بها ابنته لاحقاً، إضافةً إلى أنّ هايل ينتمي لعائلةٍ من ملّاكي الأراضي أبّاً عن جدّ. لم تجرؤ نورة أن ترفع نظرها إلّا بوجه أمّها الذي لا يخلو من نفحة الحنان، لكنّها قبل أن تكمل كلمة سالم أسكتتها على الفور وذكَّرتها بما أخبرتها به من قبل بأنَّ سالم حلمٌ مستحيل والإقلاع عنه أصبح اليوم أمراً ضروريّاً تحاشياً لأن يشعر

والدها برغبتها به إن بدرَ أيّ تصرّف منه أو من أهله عند سماعهم بأمر هايل.
سكتت نورة... وكان أبي يظنّ أن السكوت علامة الرضا... لم يخطرله أنّ السكوت أحياناً قد يكون خضوعاً وضعفاً وعلامة إذلال الأهل لأبنائهم حين يدسّون باكراً في أعماقهم بذورالخوف والخجل، فتنمو هذه البذور وتلتفُّ على شخصيّاتهم فإذا بالأهل يتفاخرون على أنّهم استخلصوا من تجاربهم بذرة التربية الصالحة.
حاولت أم عامر أن تطلب من زوجها السماح لنورة بمتابعة تعليمها الثانويّ أسوةً برفيقاتها ، فثارت مجدّداً ثورته معلناً أنّ العريس الذي يفوق أحلامه قد حضر فلم يعد هناك من داعٍ .
سكتت نورة مرّةً أخرى وتوالت خيباتها التي تدوّنهاعلى دفترها الذي صارت تراه رمادي اللون

.....

أخيراً استطاع سالم أن يفتح عينيه ويتخلّص من الكابوس الذي كاد يؤخره عن موعد الامتحان، كان قد رأى نورة تغرق في بركة ماء القرية وتمدّ له يدها لينقذها وقد كُبّلت يداه إلى صدره فلم يتمكّن من فردهما إلّا حين فتح عينيه. غسل وجهه بسرعةٍ وانطلق إلى الامتحان ووجه نورة مستنجداً لا يفارقه، قدَّم امتحانه وحين خرج وجد نفسه يقف منتظراً باص القرية ساقه إليها وجه نورة وكابوسه المزعج. وصل إلى أمّه وسألها كالعادة عن أخبار نورة وأهلها فكان ردُّها بارداً ووجهها يوحي بخبرٍ مزعج يشبه كابوسه تماماً، جُنَّ جنونه، فكّر أن

يخرج مسرعاً إلى عمّه أبي عامر يتوسّل إليه، يقبّل يديه ألّا يوافق على هذه الخطوبة لكنّ أباه هدّأه ووعده أن يبعث رسولاً الى أبي عامر يبلغه أنّ سالم يريد ابنة عمّه وهو الأولى بها، وأنّهم سيتقدّمون لخطبتها فوراً رغم كّل الصعوبات، وسيفعلون كلّ ما بوسعهم كي لا ينكسر قلب ولدهم ولا يخسر نورة التي تستحوذ على محبّتهم.
وأسرعوا بالتوسّط لدى أبي أحمد وأم صالح، إلّا أن أبا عامر أغلق أُذنيه بنجمتين من نجوم هايل، فنسف كلّ كلامهم بجوابه الوحيد أنّ سالم فقيرٌ وهو غير مضطرٍ أنّ يزوّج ابنته لفقيرٍ ابن فقير...
عاد سالم إلى المدينة بعد إلحاحٍ شديدٍ من أهله ليتابع تقديم الامتحان وقد غرقت في بركةَ ماءٍ كلُّ أحلامه الجميلة وسحبت معها تعبه وسهر الليالي وذهبت سدىً معاناته مع الجوع والبرد بعيداً عن أهله. دخل قاعة الامتحان فعاد إليه وجه نورة مستنجداً على الورقة، تابع التقديم يوماً بعد يومٍ كما وعد أمّه وأباه، وبعد نهاية الامتحان ذهب إلى القرية ليسمع عن حفلة الخطوبة التي أقيمت لنورة في منزل والدها وعن كاميرات التصوير التي لا يقدر عليها إلّا القليل من أهل القرية، وعن وفد الضباط الذي حضر المناسبة وقد أولَمَ لهم أبو عامر الذبائح، عن نورة التي وقفت بجانب عريسها كأنّها غزالةً دامعةَ العين تقف إلى جانب جذعٍ ثخينٍ لشجرةٍ قُطعت أغصانها فلا يحرّكه ريحٌ ولا مطر... أخبارٌ تمكّنت من رأس سالم فسلّطت عليه صداعاً شديداً جعلته طريح الفراش لأيّامٍ، عاد بعدها إلى عمله في المدينة ولم ينتظر نتيجة الامتحان فقد عرفها سلفاً.

كانت نورة من بين الناجحات القلائل من بنات القرية حين ظهرت نتائج الشهادة الإعدادية لكنّ فرحة نجاحها وصلت إليها باردةً باهتة لا لمعةَ فيها ، تماماً كحلقة الذهب الكابية التي وضعها هايل في بنصرها على أنّها خاتم خطوبةٍ، وصار هايل يحمل إليها تباعاً في إجازاته الهدايا، تستلمها منه وتناولها لأمّها فوراً دون أيّ فضولٍ لرؤيتها، بعد كلّ زيارةٍ تبكي كثيراً وتحكي لأمّها عن مشاعرها الباردة نحوه، كان جواب أمّها حاضراً دوماً أنّه من المستحيل أن يقبل والدك بفسخ الخطوبة ، وإنّ الحُبّ الذي يأتي بعد الزواج يعيش أطول.
لم تعُدْ نورة تخبئ دفترها الزهري عنّا، كانت تتمنّى لو يقع في يدِ أبيها ويقرأ ما تكتبه علّه يشعر بعذابها لكنّ ذلك لم يحصل أبدا...
حكت نورة بين حروفها الدامعة عن هايل الذي دخل حياتها دون إرادتها، عن ملامحه التي لم تشعر للحظةٍ بانجذابها إليها، والتي ما انفكّت تقارنها بملامح سالم فتتذكّر قامته النحيفة وعينيه اللامعتين ومبسمه الجذاب وتكاد تشهق بكاءً حين تتخيّل نفسها تنام بجانب رجلٍ سمينٍ ذي بشرةٍ محروقة.
تعود بذاكرتها الى همسات سالم وغزله الرقيق الذي وصلها طيّ الرسائل وخفّة ظلّه وذكائه فتغرق في أحزانها بينما تغضُّ أمّها النظر عنها آملةً أن تنسى ابنتها ذلك يوم تتنعَّم بعيشٍ رغيد.
افتتحتْ أبواب المدارس وكنتُ قد انتقلتُ إلى المرحلة الإعداديّة تلقائيّاً دون توسّلاتٍ لأبي الذي شعر بالمرابح التي كسبها جرّاء متابعة تعليم نورة، فأصبحت تلك بالنسبة إليه

خطّةً ناجحةً لجلب عرسان تتمتّع بمزايا ترضي طموحاته. افتقدن نورة رفيقات درسها حين ارتدين البدلات الخاصّة بالمرحلة الثانويّة والتي لطالما حلُمت هي بها. وكم سألنني عنها فكنت رغم الحسرة المدفونة في صدري على عدم مرافقتها لي طريق المدرسة، أجيبهنَّ بكلّ فخرٍ واعتزاز أنّ نورة تركت المدرسة لأنّها مشغولةٌ في تجهيز نفسها للزواج من ضابط...

بينما كانت هي تلهث طوال اليوم في مساعدة أمّي في أعمال المنزل وتربية إخوتها الصغار والدمعة تكاد لا تبرح عينيها. وأمّي مشغولة في إعداد جهاز العروس بوقته المحدد .

.....

أمّا سالم فقد حمل أمتعته وذهب بها إلى غرفة في أحد الأحياء الفقيرة في العاصمة ليتوارى عن الأنظار فقد أراد أن ينفرد بخيبته وأن يسقط في هاويته بعيداً عن نظر أهله ومحبّيه رأفةً بهم، و عسى أن ينسى ملامح وجه نورة بين الوجوه الكثيرة والمزدحمة هناك ، لم يكن يعلم أنّ سواد عينيها قد امتزج بسواد عينيه منذ النظرة الأولى فصار يراهما في كلّ العيون على اختلاف ألوانها، وأنّ صوت ضحكتها قد تغلغل في أوعيته الدمويّة فصار يسمعه مع هدير الدم في أنحاء جسده. ظلّ سنةً كاملة يبحث عبثاً بين الوجوه عن وجهٍ يشبه وجهها ليأتنس به للحظاتٍ قصيرة، يعود عند المساء حزيناً خائباً كمن ضاع منه ولده وسط الزحام يقبع في غرفته بعد يوم عملٍ شاقٍّ وكئيب...

وحين عاد الصيف واقترب موعد عرس نورة لملم ثيابه القليلة في حقيبة وحضر إلى بيت أبيه يقضي فيه ما استطاع من أيّامٍ صعبة تزيد من إحساسه بالخيبة والفقد بكلّ ما فيها من تفاصيلٍ، إلّا أنّه قرر أن يشاهد نورة وهي عروس ويودّعها ولو بنظرةٍ من بعيد...

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

وقفت نورة بفستانها الأبيض في صدر مضافة أبيها كملكةٍ حزينة لم يعنِ لها التاج والعرش شيئاً... وجهها الغضّ الذي أعطاه الماكياج رونقاً مختلفاً سرعان ما أفسدته الدموع التي ترسم خطّاً أسوداً على وجنتيها. كانت أمّي تحمل أختي الصغيرة على صدرها وتمسح دموعها الحارّة عن وجهها الوردي بينما كانت النسوة الحاضرات يتهامسن، يسبّحن الخالق على جمال هذه العروس وتستكثرن هذا الجمال بذاك العريس،وبين جمع الشباب الواقفين خارج المضافة بانتظار المشاركة في زفّة العريس إلى عروسته كان سالم يقترب شيئاً فشيئاً إلى أن وصل إلى الشباك المفتوح مقابل العروس، وقف بوجهه المسودّ ولحيته الطويلة أمسك الشبك بيديه المرتعشتين ، نظر في وجه نورة الباكي نظرةً حزينة لم يعرف معناها إلّاهي،اغرورقت عيناه بالدمع ثم أنزل يديه بسرعةٍ وعاد من حيث آتى.
دخل العريس يزفّه الشباب، يهزجون حوله فترتجّ لأصواتهم جدران المضافة

أرض الكرامة والخلق بتهابها . . .

كم من عدوٍّ ذاق طعم حرابها . . .

للحرب حنّا شبالها وشبابها . . . .

فتعلو زغاريد النسوة وأصواتهنّ تسابق أصوات الرجال لتخترق الجدران وتسمعها أهل القرية مع نقرهنَّ على الدفوف، فيطلبن الإذن من أهل العروس بالسماح لهم بنقلها إلى دارهم

عامر واطلع عروستنا . . نحنا حطّينا قيمتها . . .وراضينا لها عمومتها

تقدّم عامر وأمسك بيد نورة وسلّمها إلى هايل كما يسلّم البائع سلعةً إلى الشاري ويدعو له بالبركة، مشَت نورة إلى جانب هايل كدميةٍ مشحونةٍ بطاقةٍ كهربائية خفيفة مكّنتها من نقل قدميها إلى السيارة و نظرها معلّقٌ في الأرض والدموع ما زالت تنهمر على خدّيها بلون الحبر الأسود، أمسك هايل بيدها ولم ينتبه لصقيع كفّها وأصابعها مع حرارة جسده المشحون بالرغبة والسعادة... جلس بجانبها في السيارة التي سارت بتمهّلٍ حتّى تظلّ ملازمةً للنسوة اللواتي يمشين خلف الرجال يصفّقن وينقرن على الدفوف و تعلو أصوات الجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً بأهازيج فرحٍ تمزّق الظلام الذي غطّى القرية، وحبّات الرز والملبّس تُرش فوق رؤوسهم من أصحاب البيوت التي يمرّون حذاءها إلى أن وصلت العروس إلى بيت أهل هايل وبدأت مشوارها معهم.

.....

عندما أغلق هايل الباب عليه وعلى نورة، أقبل عليها كما يقبل الجائع على وجبةٍ شهيّةٍ ودسمة فلا يفكّر إلّا بملءِ بطنه الخاوي وإسكات عصافيره، واحتفى بها كما يحتفي الذئب بغزالته فتسلّمه جسدها طائعةً لا حول لها ولا قوّة، كذلك فعلت نورة، تركت له جسدها وذهبت مع أفكارها تتبع عينيّ سالم ونظرته الحزينة، ولم تعُد إلّا مع صرخة ألمٍ كتمتها بكفّها لوجعٍ أصاب الجسد والروح معاً، ومن ثمّ لملمت دماءها بخرقةٍ بيضاء كما أوصتها أمّها وناولته إيّاها فأسرع بها إلى أمّه لتجعل منها رايةً تثبت فحولة ابنها وطهارة عروسه، ومن ثمّ عاد ليغُطَّ في نومٍ عميقٍ بجانب عروسه التي ظلّت تمسح الدموع عن عينيها حتّى الصباح....

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

ودّع العروسان الأهل والأقارب للانطلاق إلى محافظةٍ بعيدة حيث خدمة هايل،كانت الدمعة لا تفارق عينيّ نورة. وصارت الرسائل البريديّة هي لغة التواصل بيننا وبينها قرابة عامٍ كامل، كانت أمّي تملي عليّ أخباراً موجزة عن حياتنا لأكتبها في الرسائل وتحرص دوماً ألّا تكون مزعجة تثقل على ابنتها غربتها، وتردّ نورة علينا برسائلَ مقتضبة تخبرنا أنّها بخيرٍ فقط. وبعد أشهرعادت برفقة زوجها لتمضية إجازةٍ في القرية يطفئان من خلالها أشواقهما للأهل والأحبّة،وعند العودة رافقتهما أمّ يوسف من أجل مساعدتهما في أمورولادة نورة وما يتبعها.
كانت إجازةً قصيرة في مدّتها لكنّها جلبت دهراً من الكآبة أثقل على صدر أمّي حين أخبرتها نورة عن التنافر المتواصل

بينها وبين زوجها، وعن طباعه الصعبة وجمود مشاعره نحوها والزعل الذي يوغل في صدره أيّاماً طويلةً لأتفه الأسباب ومحاولاتها العقيمة لإرضائه. لم تشعرها أمّي أبداً بالحسرة التي استولت عليها بل أخبرتها أنّ هذا أمرٌ طبيعيّ وأنّ الأيّام كفيلةٌ بالتقارب بينهما... كانت تخفّف عن نورة لتدفع المركب للمسير فقط بينما تمور بداخلها مشاعر الأسى والندم، وفكّرت بحياتها هي فبالرغم من عصبيّة أبي وطباعه الحادّة فهو لا يطيق الابتعاد عنها ساعاتٍ قليلة وإذا غضبت لا يلبث أن يغدِق عليها سيلاً من الحبِّ والطيبة،ما يجعلها تغفر له انفعالاته المتسرّعة. عندما علم أبي بذلك أخبرأمّي أنه يتوجب على نورة الصبر والبحث عن طريقة تقربها من زوجها وتضمن لها الاستقرار والتنعّم بحياتها معه
وحين انتهت الإجازة، وظّبَت نورة حقائب العودة وحملت معها توصيات أمّها وأبيها. وبعد حوالي الشهر بعثت لنا رسالة ًتخبرنا فيها أنّها بخيرٍ وصحةٍ جيدة مع طفلتها التي أسمتها إيلين تيمّنناً باسم بطلةٍ إحدى القصص التي قرأتها يوماً..
بعد عامٍ ونيّف وصلت رسالةً من نورة تطلب فيها من أبي أن يسمح لأمّي أن تكون هذه المرّة رفيقتها في رحلة الولادة الثانية، وافق أبي على عكس توقعاتنا .
سافرت أم عامرمحمّلةً بالكثيرمن السلام والحنان إلى نورة والقليل من الهدايا ممّا وفرّته خصّيصاً لها من بيض الدجاج وسمن الغنم إلّا أننا فوجئنا بها تقطع زيارتها عائدةً إلينا بعد مدةٍ قصيرة مع كل ما تكبدته من وعثاء السفر والتنقل هي

وطفلتها الصغيرة.عادت بوجهٍ متعبٍ مستاء تاركةً ابنتها تتدبّر أمرها مع أسرتها الصغيرة.

.....

بعد أقلّ من ثلاث سنوات زواج وقبل أن تبلغ العشرين من العمر وجدت نورة نفسها تعوم في بحر الأمومة ومعها طفلان عليها أن توصلهما إلى شاطئ الأمان، وقد أيقظ هذان الطفلان في أعطاف روحها شعوراً لم تكن تتخيّله بهذه القوّة أيقنت معه أنَّها لن تستطيع الابتعاد عنهما مهما هاجَ البحر من حولها، فصارت مثل كلّ الأمّهات اللواتي يبتليهنّ الله بقلبٍ رقيقٍ وشفّاف فيُنعم على أولادهنّ بفيض حبٍّ وحنان. أحسّت أنها بهذه العاطفة سوف تملأ التجويف الكبيرفي حياتها ، فجعلت بعنايتها الفائقة منهما طفلين مميّزين صحّةً ونضارةً ونظافة. وأكثرت من زياراتها إلى القرية في إجازاتٍ أطول كي ينعم ولداها بمحبّة أهلهم وأجدادهم في حياة الريف بين الحين والآخر، فإذا بها تستقطب نظرَ الجيران والحاضرين حين تقبل على بيت أهل زوجها وكأنّ هؤلاء الزائرين قادمون من كوكبٍ آخر لشدّة أناقتهم ولمعة العزّالبادية عليهم،إلّا أنّ كبرياءهاوطلّتها الجميلة قد أثارا حفيظة أم يوسف وأولادها وخصوصاً ابنها يوسف الذي كان شديد الاعتداد بنفسه كمسؤولٍ عن قناةٍ رفيعةٍ من أقنية الحزب الحاكم إضافةً لعمله كمعلّم في مدرسة القرية، وأخته التي لم يرُق لها اعتزاز نورة بنفسها،فإذا بهم يترقّبونها ويختلقون الشجار معها لأتفه الأسباب على أنها تستعلي عليهم وتشمئزّ من طريقة حياتهم البدائيّة جدّاً وهي ابنة المرابع التي عاش أهلها في المدينة وقتاً

طويلاً، فجلبوا معهم طرائق للحياة أكثر تحضّراً،كان هايل يتخبّط بينهم جميعاً لا يعرف طريقةً لإطفاء هذه النيران التي غالباً ما يزيدها سعيراً عن غير قصد. .....

"""""""""""""""""""""""""""""""

رسالةٌ جديدة من مدينة حلب تحمل طيّها بشارةً تخبرنا فيها نورة بنقل مكان خدمة هايل إلى العاصمة. ارتاح أبي وأمّي للخبر حيث سيكون مكان إقامة ابنتهما أقرب إلينا وإلى أخي عامر الذي يسكن في العاصمة وبنفس المخيّم الذي يمتلك فيه هايل بيتاً سيقيم فيه هو وعائلته ما سيخفّف عن نورة غربتها خاصّةً وأنّ الكثير من أقاربنا يقطنون هناك.

وصلت سيّارة الأُجرة إلى المخيّم ونزلت نورة تحمل حاتم على يدها بينما إيلين محمولةً على يدِ أبيها، أحسّ الجيران بحركة قادمين جُدد فأطلّوا من على الأسطح المتلاصقة ومن الشبابيك القريبة إلى الشارع، وسرى الخبر بينهم كسريان دفء الشمس إلى بيوتهم في صباحٍ شتويٍّ بأنَّ الضابط صاحب البيت قد حضر ومعه زوجةً تشبه الأميرات.
كان المخيّم يعجُّ بسكّانٍ من مختلف المحافظات القريبة والبعيدة، يغلب على معظمهم علامات الفقر حيث انتقلوا للحياة في العاصمة عسى أن تنفتح لهم أبواب الرزق والعمل. فمنهم من تطوَّع في الجيش أو الشرطة وجلب معه عائلته ليوفّر مصاريف التنقّل، ومنهم من يشتغل في دوائر الدولة برواتب متدنيّةٍ حسب درجة تعليمه المتدنيّة أكثر، وذاك الذي يعود مساءً يدفع أمامه عربة خضارٍ بقي عليها الكاسد من بضاعته فأحضرها كعشاءٍ لأسرته، وآخرٌ يحمل أكياس

الفوشار وغزل البنات يدور بين الأحياء ليحصّل أجرة البيت ولقمة العيش. وقد تنوّعت طريقة لباسهم تبعاً لمِللهم المختلفة فتجد بينهم المحجبات والسافرات إلا أنَّ وجوههم جميعاً تحكي حكايا بؤسٍ موروث.
وصارت زوجة الضابط وأخوها عامر الذي كثر مروره إلى بيتها علامةً فارقة في المخيّم. وقد آنسها كثيراً قربه منها حيث كان هايل يغيب عن البيت أيّاماً طويلةً بحكم خدمته العسكريّة.
وكثرت زياراتها إلى القرية رغم خلافاتها مع أهل زوجها التي كانت تتجاهلها أحياناً وتستوعبها أحياناً أخرى في سبيل أن تبقى قريبةً منّا ومن أمِّي التي تعلّقت بها كثيراً حين أيقنت أنّه ليس من أمٍّ تدفع بأولادها بعيداً عنها إلّا لتبعدهم عن جمرٍ تدوسه وحدها أو عن دخانٍ يكاد يخنقها.
''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

وعلى الجانب الآخر من الشارع الضيّق الذي يمرّ من أمام بيت هايل في المخيم يعيش عدنان ابن فيزة، أبوه المرحوم فهد خال هايل.
الشاب فهد تزوّج فيزة ابنة عمّه، كانت صبيّةً صارخة الأنوثة والجمال فأنجبا خمسة صبيانٍ أكبرهم عدنان. وفي صبيحة يومٍ صيفيّ أفاقت فيزة من نومها وحين دخلت زريبة المواشي صرخت صوتاً سمعته القرية بأكملها إذ وجدت زوجها معلّقاً من رقبته في حبلٍ و مسبلاً يديه. لقد شنق نفسه.
كثرت القصص والأقاويل وأخيراً اتّفق الجميع على أنَّ فيزة هي السبب، فقد ضاق زوجها ذرعاً ويئسَ من كثرة مشاكلها وشبقها الجنسيّ الذي يجعله لا يأتمن جانبها أبداً، وقد ملأت رأسه الوساوس حين اكتشف خيانتها مرّاتٍ عديدةٍ مع رجالٍ

من أقاربهم أو جيرانهم أو حتّى صبيان يافعين، فليس لديها ما يثنيها عن أن تشبع شهواتها ورغباتها الشاذّة التي ما تنفكّ تهرش جسدها الملفت بفتنته وجماله. وقد شهد الكثيرون أنّه كان يضربها ضرباً مبرحاً ويهدّدها بالطلاق الذي لم يقوَ عليه لتعلّقه الشديد بجمالها وحبّاً بأطفاله وخوفاً عليهم من التشرّد، فإذا به يجد الهروب إلى السماء منفذاً سهلاً مريحاً.

بعدها تعلّقت فيزة بشابٍّ يافعٍ يقارب ابنها البكر عمراً فإذا بها بعد مدّةٍ ليست طويلةٍ تهربُ معه إلى لبنان تاركةً وراءها أطفالاً ينهشهم الفقر واليتم والعار، فصار الأطفال الأربعة في عهدة أخيهم عدنان ذي الستة عشر عاماً وسرعان ما تحوَّل بيتهم إلى مضرب مثلٍ بالقذارة، وباتوا موضع شفقة وإحسان المحسنين ومصدر قالٍ وقيل للقوّالين الذين يشتغلون بتناقل القصص والأخبار. وحين بلغ عدنان السن القانونيّ تطوَّع في الجيش وصار بإمكانه دفع إيجار غرفةٍ في المخيّم فحمل إخوته إليها بعيداً عن ضجيج المطحنة التي تدور رحاها على سيرة أمِّهم وفعلتها الشنيعة وخوفاً من أن يقتلهم الخجل قبل الجوع. عمل إخوته في الأزقّة والحواري الفقيرة في العاصمة في بيع العلكة وصاروا يغادرون غرفة أخيهم الواحد تلو الآخر إلى دروب الحياة الواسعة إلى أنّ أصبح وحيداً في غرفته يأتنس بالأقارب من جيرانه في الحيّ ومن بينهم ابن عمّته هايل وعائلته وعامر الذي صار يعتبر من سكّان الحي إثر تردُّده المستمرّ إليه فيبدو للجميع أنَّ عدنان شابٌّ مهذّبٌ يعيش حياةً طبيعيّةً بعد أن قام بواجبه نحو إخوته .

''''''''''''''''''''''''''''''''''

بينما كان سالم في لبنان حيث انتقل للعمل هناك بعد أن رسب بامتحان الثانويّة، كانت صورة وجهه وابتسامته ما زالت مخبوءةً في زاويةٍ من زوايا قلب نورة لا تفتحها إلّا في الأحلام. فهي منذ أن سمعت صرخة إيلين الأولى شعرت أنّ مكانها الطبيعي صار في بيت هايل فانشغلت في تربية طفليها والحفاظ على ترتيب بيتها. واستحسنت جاراتها القريبات جيرتها ، فتبادلت معهنَّ الزيارات الصباحيّة واجتمعن على التبصير في فناجين القهوة بعد انطلاق رجالهنَّ إلى أعمالهم، وقد تعلّمت جاراتها منها الكثير من فنون الطبخ التي برعت به، واتّبعت هي عاداتهنَّ في الاعتماد على صحون الحمّص والفول من المطاعم القريبة لوجبة الفطور، والفراريج المشويّة على الغداء حين تملُّ من تكرار الطبخ. وكان عامر قد هجر غرفته ولم يعد بحاجةٍ إليها إلّا حين يعود هايل إلى بيته من مشاريعه العسكريّة، ويوماً بعد يوم أصبحت نورة تتأقلم مع الوضع وتستقرّ أفكارها وتختصر الكثير من المشاحنات مع زوجها، و صارت تستحسن الحياة في كنف هايل مقارنة مع المجتمع المحيط بها وما تعانيه نساؤه من فقرٍ وتعب إن كان في المخيّم أو في القرية، و تتلمّس نعومةً عيشتها معه، فقد استلم سيّارةً عسكريّةً تؤمّن لها الكثير من الخدمات، وتحت سلطته عدد من العساكر يقومون بتلبية طلباتها وطلبات البيت ويريحونها من الأعمال المجهدة، فوضعت جانباً مشاعرها نحوه وعلاقتها الباردة به وقرّرت أن تعوّض نفسها عن الحبّ المفقود بوضع ماديٍّ مريح يسمح لها أن تعيش و تربّي طفليها كما تتمنّى.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

أفاقت صباحاً على صوت الباعة الجوّالين وأصوات أولاد الحيّ يتراكضون تحت نافذتها، وضعت ركوة القهوة على النار وأيقظت عامر، شربا القهوة معاً وانطلق إلى عمله،قدّمت لأولادها بدايةً وجبة محبّةٍ كبيرة ٍ وتناولت معهما وجبة الإفطار ثمّ لبست جلابيّةً سوداء مطرّزةً بخيطٍ ذهبيّ، ووقفت أمام المرآة تأمّلت تطابق السواد بين عينيها وشعرها القصير المجعّد ولون الجلابيّة وفكّرت بحسرةٍ لو أنَّ سالم يشاهد هذا التطابق وما نجم عنه من نضارةٍ بدت على وجهها، وما فعله الخيط الذهبي من بريق ٍ انعكس على قوامها، ماذا كان سيكتب لها برسائله، وكيف كان سيدغدغ مشاعرها النائمة في قلبها الذي جفّت مياهه. فكّرت بعيشتها مع هايل الذي يغيب عنها أيّاماً طويلةً وحين يعود لا يفكّر أن ينظر في وجهها، وحين يبيتُ بجانبها بعد أن يستحمَّ ويأكل يعلو شخيره ما أن يضع رأسه على الوسادة، فتكتم صوت قهرها وحرمانها، وتدفن رغباتها وتنام والدمعة في عينيها تمسحها حين تفيق في الصباح وتجده قد غادر البيت.

تنهّدت تنهيدة أسىً ووضعت مكياجاً خفيفاً وحملت حاتم وقادت إيلين من يدها وخرجت إلى بيت جارتها أم طلال التي تسكن مقابل بيتها،حيث صبحيّة اليوم على شرفة بيتها.

اجتمعت النسوة اللواتي لا يزيد عددهنَّ عن الأربعة، وساد بينهنَّ الهرج والنكات، وكانت نورة تشاركهنَّ الحديث وتشرد عن أصوات من حولها قليلاً تنظر في وجه كلٍّ منهنَّ على حدة وتتساءل: "تُرى هل هي سعيدةٌ بزواجها؟ أم أنَّ لكل البيوت أسرارٌ لا يعرفها إلّا أصحابها؟"

ثمّ ما تلبث أنّ تنتبه لنفسها فتشاركهنَّ بضحكاتٍ قادمة من مسافات بعيدةٍ عن باب قلبها . فجأةً قطعن النسوة ضحكتهنّ إذ أقبل عليهنَّ عن الدرج الصاعد إلى الشرفة شابٌّ وسيم، أنيق المظهر يعرفنَه جميعاً إلّا نورة. إنّه سعد أخو أمّ طلال الذي يعود صباحاً من عمله في المطعم.

رمى سعد تحيّة الصباح ولاحظ وجهاً جديداً ملفتاً فاقترب أكثر وصافحهنَّ واحدةً تلوَ الأخرى، وعندما مدَّت نورة يدها نظر في وجهها فشاهد عينين لم يرَ بجمالهما وبريقهما لا في لبنان التي عاش فيها منذ طفولته يعمل في الكازينوهات الليلية والمطاعم الفاخرة، ولافي الشام التي انتقل إليها حديثاً. فلم يستطع أن يكسر نظره ولا أن يسحب يده من يدها، بل ضغط عليها بجرأةٍ لم يشعر بها أحدٌ غيرها، فسحبت يدها بسرعةٍ وعادت لتبادل الحديث مع رفيقاتها دون أن تعيره أيّ اهتمام.

وعندما انتهت الجلسة وعادت كلّ واحدةٍ إلى بيتها مسرعةً لمتابعة أعمالها وواجباتها، عادت نورة بخطواتٍ بطيئة شاردة الفكر مع هذا الشاب الذي بدا لها وقحاً، فتحت الباب ودخلت مع طفليها وهي تشعر أنّ جسدها يرتجف جرّاء هذا الموقف الذي تتعرّض له للمرّة الأولى في حياتها، فكّرت بحيرةٍ ماذا كان عليها أن تتصرّف كي تُفهم هذا الشخص أنّها امرأةٌ محترمة ترفض هذه الحركات، تخبّطت مع حيرتها وأفكارها لوقتٍ قصير، ثمّ قرّرت أخيراً أنّ تتجاهل الأمر عسى ألّا يتكرّر، وتابعت عملها بتحضير طعام الغداء لعامر الذي اقترب موعد عودته من العمل.

.....

أمّا سعد فقد وعد نفسه مُذّ لمح وجه نورة لأوّل مرّة بعلاقةٍ غراميّةٍ ممتعة كان قد اعتاد على مثلها أثناء معيشته في لبنان فاستفسر من أخته عن هذا الوجه الجديد في الحيّ ،أخبرته عن وضع نورة بالتفصيل دون أن يخطر لها ما يدور في بال أخيها، ما أتاح له معرفة الطرق الممكنة للدخول إلى حياة هذه المرأة الجميلة، وأيقن أنّ أقصر طريقٍ سيكون من خلال صحبته مع زوجها و أخيها، فبدأ فوراً بتمهيده بأن صار يتقرّب منهما، ورويداً رويداً دخل معهما في جلساتهما المسائيّة ولعب الشدّة وأنشأ مع عامر علاقةً طيّبة أظهر من خلالها المودّة والانسجام، وتمكّن من أخذ فكرةٍ عن طبيعة عمل هايل وفترات غيابه عن بيته، وعندما شعر أنَّ الساحة قاربت على الخلوّ صار يرابط على شرفة البيت أغلب النهار فيصبح سطح بيت نورة مكشوفاً له تماماً، تتفاجأ به كلّما اعتلت السطح لتنشر الغسيل أو تحضر شيئاً من عليه، فالبيوت الضيقة في المخيّم تضطرّ ساكنيها لجعل أسطحها ساحاتٍ لقضاء أعمالهم ولعب أولادهم وفسحاتهم المسائيّة.
وقعت نورة في حيرة ٍمن أمرها، أن تمتنع عن الصعود إلى السطح أمرٌ صعب، فهي وحيدةٌ في البيت ومعظم أعمالها تتطلّب ذلك، فكّرت أن تخبر أمّ طلال ثم تراجعت فوراً تجاهلت الأمر وقرّرت أن تتصرف بشكلٍ طبيعيّ .
يوماً بعد يوم صارت تسمع صفيره وتلاحظ منه حركاتٍ غريبة، احتارت ما هي فاعلة ، فكرت من جديد أن تخبرأخته لكّنها تراجعت، فهو حتماً سينكر، تجاهلت الأمر مجدّداً وتابعت حياتها مرتبكةً، وصارت الأقاويل والتكهّنات تفعل فعلها في عقلها فتزداد حيرةً وشروداً، تفكّر هل تخبر عامر

وتسبّب له مشكلةً الله وحده يعلم ما سينجم عنها من قيل وقال ، وما قد يلحق به من آذىً؟
قرّرت أخيراً أن تذهب إجازة طويلة إلى القرية، فتنعش روحها التي أحكم عليها الخناق هواء المخيم المثقل بدخان المعامل والمركبات فيعكّر زرقة سمائه ويعبق بأنفاس سكّانه المزدحمين وروائح بيوتهم التي تتأفّف الشمس من صعوبة زيارتها لقلة شبابيكها وتقارب جدرانها.
هناك تجلس في فناء دار أهلها الكائنة في البريّة تغبُّ هواءً نظيفاً يوسِّع صدرها مع نسيمات قريتها الجبلية ويعود الصفاء لوجهها وروحها مساءً بالقرب من أصص الحبق المصطفّة أمام البيت، ويزقزق أطفالها مع عصافير الدوري الساكنة أشجار السروِ التي زرعها أبي لتكون واجهة الدار الأماميّة، يغطسون في بحرة الحبّ والحنان مع أخوالهم وخالاتهم، وينفتح باب قلبها بيد أمّها الدافئة فتفرغ ما طفح به من هموم ٍ حين تخبرها عن الريح التي هبَّت على حياتها مؤخّراً فأربكتها وشوَّشت صفوَ عيشتها وعسى أن تهدأ في بيتهم الذي تخيّم عليه أمّها بنصائحها المغزولة بالحبّ.
وعلّ سعد بهذه الفترة يؤاخذ نفسه ويتراجع عن تصرّفاته المعيبة فتعود هي إلى حياتها التي كانت قبل أن يلتقيها.
اصطفّت السيّارة العسكريّة أمام بيت أبي يوسف ونزلت نورة بلباسها الأنيق تحمل حاتم على يدها مكتنز الصحّة أبيض البشرة... كانت قد ألبسته قميصاً أبيض أكمامه القصيرة تظهر ذراعيه البضّتين وياقته ذات اللون الزهري الفاتح مع خصلات شعره العسلية توحي أنّه بنتٌ لولا الشورت القصير وحذاءه الأسود الذي يشبه أحذية الرجال. وأمسكت بيد إيلين

الطفلة ذات الشعر الخرنوبيّ المجدول جديلةً واحدةً من قبّة رأسها إلى أسفل رقبتها .
دخلت بأطفالها وكان في استقبالها حماتها وابنتاها... طلّتهاالتي تعكس ما تتمتّع به من عيشٍ رغيد، نكأ في أعماق أمّ يوسف وابنتها الكبرى ثآليلاً ساكنة. فاستقبلنها بوجوهٍ باردة تنمّ عن زعلٍ مُبيَّت لم تعرف مثله يوماً في بيت أبيها الذي كان غضبه كرغوة الصابون سرعان ما تسيل مع الماء تأخذ معها كل الشوائب.
مع أمّ يوسف وعائلتها تعرّفت على فئة الدم الأزرق التي كانت تخبرنا عنها جدتي أمّ صالح ، فإذا بهم يخبّئون الزعل تحت جلودهم أيّاماً قد تطول حتّى تصبح شهوراً وسنوات إلى أن يفسد ويزرَقّ ...

وقبل أن تغرب شمس ذاك النهار كانت النسوة قد نفثنَ ما في صدورهنّ، ووجد يوسف الفرصة مواتية لتذكيرها بالأصول التي تنتمي إليها هي وعائلتها، عندها استجمعت نورة صوت قلبها وكرامتها مجيبةً أنَّها تعتز بفقر أبيها وجدِّها الأغنياء بقلوبهم الصافية، وأنّ رجلاً يعجز عن حماية زوجته هو الفقير، وانسلّت مسرعةً من وجه هايل الذي اهتزَّت صورته أمام أهله وأراد أن يضربها أمامهم لكنّها خرجت من الدار تاركةً طفليها متوجّهةً صوب بيت أبيها، تحثّ الطريق الإسفلتيّ المحفَّر بصندلها ذي الكعب العالي، كانت الشمس قد مالت للمغيب وصعبت الرؤية في شوارع القرية الفقيرة بالأنوار الكهربائية التي وصلتها حديثاً، عيناها غارقتان بالدموع تتجاهل المارّين بجانبها الذين يستغربون مرورها

السريع دون إلقاء التحيّة على غير عادة أهل القرى، تحدِّث نفسها عمّا ستخبر به أهلها، عن الموقف الذي حصل للتوِّ وعن مواقف هايل السلبيّة دوماً وضعف شخصيّته بوجه أمِّه، ستخبر والدها الذي صار يبدي لها الكثير من المحبّة بعد زواجها أنّها لن تعود إليهم، وستخبر أمَّها مجدّداً عن علاقتها بهايل التي تزداد جفافاً يوماً بعد يوم وعن برودة مشاعره نحوها ما يجعلها تنفر منه وتبتعد عنه أكثر فتتوسّع الفجوة بينهما.

وصلت إلى باحة الدار وجدت أهلها مجتمعين فيها على كراسي الخيزران، وقفت أمُّها حين شاهدت فجأةً خيال ابنتها، تأكّدت منه حين صار تحت نور اللمبة الوحيدة. إنَّها نورة.. تنورتها السوداء الضيقة بالكاد تغطي ركبتيها وكنزةً ضيّقة بلونٍ بنفسجيٍّ فاتح أكمامها الطويلة تغطّي ذراعيها، وصندلها الأسود قد عفّره غبار الطريق... اقتربت أحداهما من الأخرى أكثر وعندما وضحت الصورة تعانقتا عناقاً طويلاً، بكت نورة على كتف أمِّها كأنّ الشهر الذي ابتعدته عنها كان عدداً من السنين، عرف كلٌّ من أمّها وأبيها أنَّ بكاءها ليس شوقاً بل هو حبلٌ نحيب طويل ملفوفٌ ومخبّأ في أعماق ابنتهم منذ وقت بعيد. جلست نورة على الكرسي وفتحت حقيبتها الصغيرة، سحبت منها محارم ورقيّةٍ كثيرة تمتصّ بها مدرار الدموع ، وبدأت تروي ما حدث بصوتٍ يتأتئه النحيب احتقن الدم في وجه أمّي من شّدة الانفعال وأحسَّت أنَّ نوبةً قلبيّةً ستداهمها، وبعد أن أفرغت نورة ما في جوفها من حرارة القهر المزمن ومسحت دموعها، فإذا بشرارة الأمومة تلذع ضلوعها، فقد تذكّرت طفليها واعتصر قلبها حين تخيّلت ردّة فعلهما عندما

غادرت بهذه الطريقة المتسرّعة فعادت للبكاء من جديد متوسّلةً أبي أن يبعث أحداً لإحضارهما.
ظلّت أعصاب أبي هادئةً لم يُبدِ الغضب ولم يَثُر كعادته إذا داس له أحدٌ على طرف، يبدو أنّ عودة أم عامر السريعة من زيارة ابنتها جعلته يكتشف أموراً كثيرةً فلا يُفاجَأ. فكّر في الأمر ملياً وعرف أنّ الوقت قد فات وأنّه لم يَعُد أمامه إلّا أنّ يسعى لتهدئة الأمور وإخفائها عن المحيطين به ، فأمسك بيد ابنته المكتوية للتو وأعادها إلى النار ثانيةً.
مشت نورة بجانب أمّها وأبيها على طريق العودة خطوة تشدّها للخلف حين تتذكّر وجوه هايل وأهله المقيتة وخطوة إلى الأمام إذ أنّها تركت عندهم نتفاً من قلبها ، وما انفكّ أبوها طول الطريق يلقّنها عبارات الاعتذار فوعدته أنّها مستعدّةٌ أن تبلع الحجارة كرمى لعيون طفليها فقط. عاد أبي وأمّي إلى البيت دون أن يوجّه أحدٌ إليهما كلمة اعتذارٍ عمّا حدث، أمّا هايل فقد نفش ريشه كديكٍ روميّ وتبختر أمامهم واعداً أبي بأنّه سيلبّي دعوته على طعام الغداء غداً.
"""""""""""""""""""

بعد أيّامٍ قليلة عاد هايل إلى عمله في الشام وحيداً،والتأم الجرح في صدر نورة وتجاهلت الندبة التي تركها، بقيت عندنا أيّاماً كانت فترة نقاهةٍ لقلبها ،وقلب أمّي التي حلفت يومها أنّ نشيج نورة على كتفها كان ينفخ فيه حتى أحسّت أنّه ملأ صدرها وكاد يودي بحياتها.
استلمت نورة أمر الطبخ فأعدّت لنا وجباتٍ لذيذة على الطريقة الحلبيّة التي تعلّمتها أثناء إقامتها هناك، واحتار أبي كيف يغدِق الحنان عليها وعلى طفليها ، كانت نورة تتمنّى لو

أنَّ هذه النقاهة التي تنعم بها في كنف بيتنا لا تنتهي لو لا يقينها بالفقر الذي يحاول أبي أن يخفيه عنها وعنّا.
وفي إحدى الأمسيات التي كانت تجمعنا على البرندا تحت ضوء القمر واللمبة الوحيدة كان أبي خارج البيت والجوّ مناسباً كي تبوح نورة لأمّي بما يقلقها. بدأت بسرد الأمور بصوتٍ هامسٍ وصار وجه أمّي يتقلَّب بين العبوس والاستغراب، فتهمس هي الأخرى محاولةً الحفاظ على السريّة الأكيدة لأمرِ معيب ٍ لا يجلب معه إلا العار والفضيحة. شعرت أمّي حينها أنَّ قلبها عاد يتضخَّم من جديد وأكّدت لها أنّه يجب أن لا يعلم أحدٌ بالأمر أبداً، فإنَّ الرجال تكون ردود أفعالهم انفعاليّةً جدّاً ومتسرّعة إزاء هذه الأمور ممّا قد يسبب لها فضيحةً تتسلّى بها الناس لا قدَّر الله، وأوصتها بمزيدٍ من التجاهل والتخفيف قدر الإمكان من الاقتراب من جارتها أم طلال ومن استعمال سطح البيت عسى أنّ يملَّ هذا (الأزعر)، أومأت نورة برأسها توكيداً على أنَّ كتمان الأمر هو الحلّ الأمثل حفاظاً على سمعتها و لأنَّ اللّوم في النهاية سوف يقع على عاتقها هي دون النظر إلى مجريات الحدث، وأضافت أمّي لأنّنا (جنس معثّر)

ذلك ما أقرّت به من قبلها أمّها وجدّتها وإلى ما شاء الله من جدّاتٍ صِرنَ في جوار ربهنّ وكرَّسن ذلك حتّى صار أمر ضعفهن من المسلَّمات وصارت المرأة التي لا تقبل بذلك هي مسترجلة أو مختلّة عقلياً.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

عادت نورة إلى بيتها صباحاً تحمل وصايا أمّها. أوصلها هايل وانطلق بسيارته إلى قطعته العسكريّة، تجوّلت في أنحاء البيت فعرفت أنَّ زوجها استضاف في غيابها جيرانه الرجال، يبدو ذلك من رائحة السجائر العالقة في زوايا البيت وعلى الفرشات والستائر القليلة، ومن وضع المطبخ ومنافض السجائر بدَّلت ثيابها وانطلقت إلى ترتيب البيت بهمّةٍ ونشاط فقد حصلت على كمٍّ كافٍ من هواء القرية النقي ، غير أنَّها قد اشتاقت لبيتها الذي سكنته حديثاً والذي تربطها به أمورٌ كثيرةٌ أجملها حاتم وإيلين ومن ثمّ عامر الذي تعلّقت به هي وأولادها. هنا ورود حديقتها الصغيرة جدّاً التي لا تبلغ مترين مربّعين تحت الشّباك المعاكس لجهة الطريق، وجاراتها اللَّطيفات التي اشتاقت لأحاديثهنَّ المسليّة فوعدت نفسها أن تتفرّغ اليوم لإعادة ترتيب البيت وغداً ستدعوهنَّ لصبحيّةٍ في بيتها، وتساءلت في نفسها أثناء تبديل ملابسها إن كانت قد اشتاقت لهايل ثمّ حملت إحدى الفرشات وتوجّهت نحو السطح تضعها في الهواء الطلق عسى أنّ تسحب أشعّة الشمس منها رائحة الهواء الخزين الممزوج بدخان السجائر، صعدت درجتين، تذكَّرت وصية أمّها (التقليل من استخدام السطح)، لكنَّها تابعت الصعود، لا من منفسٍ إلّا السطح، رمت الفرشات بسرعةٍ دون أن تلتفت وعادت مرّةً ثانيةً وثالثة فإذا بجرس الهاتف أسرعت..

-ألو...

-ألو...

صوتٌ غريب!!!

- مَن معي؟

- الحمد لله على السلامة
- مَن يتكلم؟
- أنا جاركم سعد أخو أمّ طلال.
أطبقت سمّاعة الهاتف بيدٍ مرتجفة ٍحيث أحسَّت أنَّ قلبها قد سقط أرضاً. لحظاتٍ قصيرة استعادت وعيها، وقبل أن تهدأ الأفكار برأسها عاد الجرس يرنُّ، تمالكت أعصابها وردَّت:
- ألو مَن معي؟
- أنا سعد لماذا أغلقتِ الخطّ؟
- ماذا تريد؟
- أريد أن أسأل عن عامر...
- ومن أين حصلت على الرقم؟
- من عامر هو من أعطاني الرقم .
- حسناً... عامر ليس هنا الآن هو في مكان عمله...
ردَّ سعد بأسلوبٍ لطيف:
- طيّب... آسف على إزعاجك ولكن أحببت أن أهنّئك بعودتك أنت والأولاد بخير، وأخبرك أنّك تملكين أجمل الوردات في حديقتك.
-نعم؟ وكيف رأيت حديقتي؟
- اووووه في غيابك رأيت حديقتك وبيتك الجميل الذي ينّمُ عن ذوق صاحبته وأناقتها، فقد دعانا زوجك للسهرة في بيتكم مستغلاً غيابك.
وضحك بطريقة مزاحٍ أحسَّت نورة من خلالها بتصنُّع وسماجة تكرهها فنفرت به:
- أهلاً وسهلاً مع السلامة.

أطبقت الهاتف وتساءلت هل كانت فترة غيابها عن البيت لإبعاد سعد عنه أم ليخطوَ نحوه خطوةً جديدة ؟
وفي الصباح عندما قامت بدعوة جاراتها فكّرت أنّ تتجاهل أمّ طلال ثم تراجعت، ليس هناك من سبب .

"""""""""""""""""""""""""""""""

سرى الوهن في قلب أمّي أكثر بعد أن غادرت نورة، فالخوف على سمعة الأسرة يزفر أنفاسه فيه من جهة والقلق على ابنتها من جهة والمرض من الباب الواسع، وصارت تلِّح على نورة لتكثر من زياراتها التي لم يمانعها هايل،وأمّ يوسف ما انفكّت تغتابها وتعلّق رأس خيطٍ يسحبانه معها يوسف وأخته كلّما اجتمعوا حتّى تحولت مشاعرهم إلى كرهٍ حقيقيّ لها، ونورة تزداد جمالاً وزهواً بنفسها أكثر فقد علّمتها غربتها عن أهلها الاستقلال برأيها وشخصيّتها فتلبس وتأكل وتتصرّف على طريقتها الأقرب إلى المدنيّة بما لا يروق لأم يوسف وأولادها.....
القلق الذي صار يظهر على أمّي من خلال أسئلتها الكثيرة جعل الخوف على صحّتها يتملّك من نورة، فصارت تخفي عنها ما تنطوي عليه حياتها في المخيّم من اهتزازاتٍ مزعجة، وجعلت منّي ملجأها ومخبأ أسرارها حين شعرَت أنّي صرتُ صبيّةً. وحين سألتها أن تخبر زوجها عمّا تتعرّض له من إزعاجاتٍ من قبل سعد أدمعت عيناها دمعةً وتنهّدت تنهيدةً عرفتُ لاحقاً عمقها ومنبعها.
فقد كانت تتحسّر على أنّ الله قد حرمها من شريكٍ تعاهدَ معها على الصداقة قبل الحبّ يمضي العمر معه كبرقةٍ تعِدُ

بالمطر. وأنّه حرمها رفيق دربٍ يحضنها إذا عصفت الرياح، يخلع عن كتفيه ثوباً يدفّئها به إن أحسّت بالبرد، عندها كانت ستزين سماءه كقوس قزحٍ تَظهر له مع الشمس في يومٍ غائم لتملأها جمالاً وفرحاً، حرمها من رفيقٍ يجعل من كتفه وسادةً وثيرةً لرأسها وهي بكلّيتها عكّازه القويّة إن تملّك منه التعب.

بينما هايل لم يكن لها أكثر من شريك سريرٍ فراشه محشوٌّ بالقشّ اليابس ، أغطيته قديمةٌ باهتة الألوان، تعيش معه في بيتٍ بما احتوى من طعامٍ وشراب وثياب وماء وصابون ومصاريف مادية حرص دوماً فيه على الشكليات التي تحافظ على صورته أمام المجتمع فقط، وحين يصعب عليه أمر يلجأ لأمّه وأخيه يوسف في حَلّه ولو على حساب بيته وزوجته، وإذا اختلفا في أمرٍ ما فهي المخطئة حتماً وما عليه إلا اللوم.

كانت نورة تعتقد أنّ كلّ النساء أوفر حظّاً منها وأنهنَّ قد وُفِّقنَ بأزواجٍ يتبادلن معهم الحبّ والسعادة، لم تتوقّع أن أغلبهنَّ باكياتٍ في أعماقهنَّ ضاحكات الوجوه فقط، كلّ واحدةٍ منهنّ تسعى بطريقتها الخاصة للتكيّف مع جفاف الهواء الذي يدخل صدرها لتتمكّن من ازدراء اللقمة اليابسة التي تبتلعها مرغمة.

قرّرت أنّها لن تخبر هايل بأمر سعد الطارئ والمزعج فلن ينالها من جرّاء ذلك إلا اللوم، وسيلجأ إلى أهله يخبرهم دون أن يحسن التصرف. فهي تدرك أنّها تستند إلى جدارٍ هشٍّ سينهار فوراً محدثاً ضجيجاً فاضحاً .

صار سعد يتمادى أكثر كان واثقاً من حصوله على مبتغاه ولا يؤخّره عن ذلك إلّا الوقت، طالما أنّ جارته الجميلة لم تخبر أحداً بعد إذاً هي خائفةٌ ووحيدة. فاستفزّها بتكرار اتصالاته

واضطرّها لتبادل الحديث معه تحاول إفهامه أنّها امرأة شريفة ترفض هذه العلاقات الخاطئة، فيستغلّ الفرصة هو لرمي بعضاً من كلامه المعسول كطعمٍ للسمكة التي يحلم باصطيادها ويمنّي نفسه بها كوجبةٍ شهيّة.
ولم يعكّر صفوَ عامر وهناءه بالقرب من أخته وأولادها أزيز برغشةٍ ولا دبيب نملة، ولم يخطر له أنّ بؤرةً كالتي انتقلت إليها مؤخّراً لابدّ أن يكون قد اختبأ في شقوقها الكثير من الحشرات وأعشاشها، فهو لم يرَ من رفاقه الجدد عدنان وسعد إلّا الأدب والتهذيب .

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

كان صباحاً من صباحات الشام الصيفيّة الحارّة حيث الشمس تصل إليها باكراً وتدفع إليها هواءً ساخناً كأنّه انبثق للتوِّ من فوهة بركان. أفاقت نورة بعد ليلةٍ طويلة عجزت فيها المراوح عن تخفيف وطأة الحرّ، أسرعت إلى السطح تلمّ غسيلها قبل أن يستيقظ طفلاها. وكالعادة كان سعد جالساً على الشرفة يشرب قهوته الصباحيّة بعد عودته من عمله في الكازينو الليليّ، لم تكترث له أدارت ظهرها وأسرعت بعملها بينما هو وقف قبالتها يومئ بحركاتٍ لم تُرِدْ أن تراها، وإذ يفاجئه عدنان، ظهر من على الدرج صاعداً بخفّةٍ يريد أن يكلّمه في أمرٍ ما، ارتبك سعد بينما هي حملت غسيلها ومضت تهبط الدرج بسرعةٍ دون أن تنتبه لوجود عدنان،و لم تعلم أنّها جعلته اليوم يفوز بأدواتٍ انتظرها طويلاً ليحيك ستارةً يحبكها بإتقانٍ .

حين دخل عدنان حياة هايل وأسرته،لاحظ عدم الأنسجام بين هايل وزوجته، وغيابه الطويل والمتكرر عن البيت ،فثارت في صدره الشكوك ،وصار يراقب نورة من بعيد،و شرع يرسم الصور في مخيلته ،ومن ثم ينقلها إلى يوسف الذي كان يزوره كثيراً فتقوم نورة بدعوته إلى بيتها وتقيم على شرفه الولائم، تدعو إليها مضيفه عدنان وأخاها عامر متناسيةً كلَّ ما يصدر عنه من مواقف مزعجة حين يتدخّل بخلافاتها الحاصلة مع أمّه، يدخلان بيتها هو وعدنان يأكلان من خبزها وعندما يخرجان يتّفقان على تمزيقه.

يوسف يؤكّد على عدنان دوماً أنّ الشرف الذي لوّثته امرأةٌ من الواجب غسله من قِبل الرجل بأيّ طريقة، وإنّ عائلةً عريقة كعائلتهم لن ترضى بأنّ يُدنَّس شرفها من قبل امرأةٍ مازالت تسرح وتمرح في الحياة. عدنان يخجل أن يعلن ليوسف أنّ المرأة التي يقصدها هي أمّه التي يجري دمها في عروقه، فيضيق صدره من شعوره بالتقصير أمام ابن عمّته ومن إلحاحه المستمر، ويرعبه ما يخطّط له.

فأتت اليوم حكاية نورة منفذاً سهلاً يشغله به عن قصّة أمّه ويتساويان معاً في التغاضي عن امرأةٍ تلوّث شرفهم وتعيش في بيتها معزّزةً. استمرّت مباحثاتهما السرّيّة شهوراً كان خلالها عدنان يكثّف مراقبته لسعد ويحبك قصصاً حين يراه يلازم الشرفة .

ضاق صدر نورة من كثرة اتّصالات سعد وإزعاجاته ومن إخفاء الأمر عن أخيها، فتقاوم الضيق بالرعب من الفضائح

وثرثرة الناس والبلبلة التي ستعقب ذلك وما سيقع عليها من لومٍ محتّم من قبل زوجها وأهله ومن ثمّ المجتمع وحينها كيف ستنظر في وجه أبيها الذي لم ولن تنسى نظراته أبداً، فجدّدت الهروب والابتعاد والعودة إلى أحضان أمّها في إجازةٍ طويلة.

كان شتاءً محمّلاً بالثلوج والأمطار استبشر أبي وظنَّ أنّها سنة خيرٍ وغلال ووقفت أمّي على الشباك تنظربعيونٍ ساهمة إلى السماء السوداء وشكَت كثيراً أنّ قلبها مطبقٌ ولم تعرف لذلك سبباً. وكنت أغار من جلساتهما الطويلة هي ونورة وأحاديثهما التي لا تنتهي ممزوجةً بالهمّ أحياناً وبالضحك أحياناً وأنا بعيدةٌ عن هذا المسرح الجميل إمّا في المدرسة أو منزويةً مع كتبي في المضافة أستعدّ لامتحان الشهادة الثانويّة.
أتى عامر من الشام بإجازةٍ قصيرة وصار ينضمّ إلى جلساتهما الخاصّة التي باتت تقتصر على الأحاديث السرّيّة والغمغمات التي تنمّ عن أخبارٍ سيّئة وتؤكّد أمّي في نهاية كلّ جلسة ألّا يعلم أبي . كان عامر قد وصل إلى مسامعه همسٌ خفيفٌ متسرّبٌ عن لسان عدنان أنّ نورة على علاقةٍ مع شابٍّ يسكن في الحيّ اسمه سعد، فلم يعرف النوم الليلة الفائتة وأتى مسرعاً ليجتمع بأمي ونورة ويسمع من نورة بحضور أمّي قبل أن يقدم على أيّ تصرفٍ تكون عواقبه وخيمة على أخته في أمرٍ حسّاسٍ كهذا.
دمعت عينا نورة حين سألها عامر عن الأمر، ونظرت إليه نظرة عتبٍ حين ظنّت أنّه يصدق عنها هذه التصرّفات المعيبة إلّا أنّه سرعان ما مسح ذلك عن وجهها بنظرة حنانٍ ومحبّة.

لكن الهمّ استولى على أمّي وبدا واضحاً من نظرة عينيها اللّتين عشّش فيهما حزنٌ غريبٌ وعميق، واحمرار وجهها الذي يوحي بنوبةٍ قلبيّةٍ محتملة، هدّأها عامر ووعدها بأنّه سيعرف ما سيتصرّف مع هذا الذي اسمه سعد و كيف سيخرس نباح الكلب ابن فيزة الذي انهالت أمّي عليه بالشتائم ،ثم أوصت عامر بالهدوء والسرّيّة ، فوعَدَها بتنفيذ وصاياها وعاد إلى الشام متوعّداً في سّره أنّه لن يثير بلبلةً.

فقط سيهدّد سعد بأنّه سيعرف كيف يجرّه إلى قسم الشرطة ليتمّ تأديبه هناك دون أن يلوّث يديه به إن تجرّأ بعد اليوم على نظرةٍ أو كلمةٍ واحدة مع أخته. وأمّا ذلك النذل عدنان، فلن ينزل إلى الحضيض الذي يعيش فيه كالفئران فقط سيمتنع عن أيّ كلمةٍ معه .

ذهب عامر وربض القلق على صدر أمّي وحرمتها أفكارها النوم وكثرت عليها الكوابيس، حتّى أفاقت يوماً مذعورةً وأخبرت أبي أنّها رأت نفسها في الحلم عروساً تركب الفرس والناس تغنّي وتهزج من حولها، أخفى أبي خوفه من هذا الحلم لكنّها خافت أيضاً وأوصته قائلةً إن مُتّ (وداعتك البنات) . لم تعرف أمّي قبل موتها أنّ البنات والصبيان يتساوون ضعفاً أمام اليتم. خبّأت حلمها المزعج عنّا ولم تبُح به إلّا لأبي وللسماء الداكنة بالغيوم من خلف بلّور النافذة التي تغبّش كثيراً من زفراتها وما تنفكّ تمسحها بأصابعها كي تتمّعن الغيم أكثر وتخفي عنّا دموعها.

عادت نورة إلى بيتها والهواجس قد تملّكت منها، هي لم تدرِ بحلم أمّي إلّا أنّ أفكارها كانت تأخذها إلى الحيّ في المخيّم وإلى جيرانها الذين وصلهم همس عدنان وما هي نظرتهم

إليها الآن؟ تتقافز أفكارها كالبراغيث تحطّ على وجه حماتها أمّ يوسف وعلى وجهي يوسف وأخته وأخيراً على وجه هايل، تتخيّل ما ستكون ردود أفعالهم إن وصل إليهم كلامٌ من هذا القبيل، تئزُّ الأفكار في رأسها فتحرمها الراحة، تهرش دماغها تارةً وتتجاهله تارةً، وحين تنظر في وجه طفليها تشعر أنَّ هموم الدنيا كلّها وأحزانها اجتمعت عليها، ومع كلّ هذا تعود إلى حياتها الطبيعيّة وتبدي عدم اكتراثها عملاً بوصيّة أمّها التي تفكّر برويّة وتحبّذ التأنّي والهدوء.

ارتاحت من اتصالات سعد بعد أنّ هدّده عامر وعلى أثر ذلك انقطعت علاقتها بأخته أمّ طلال واكتفت الاثنتان بالتحايا من بعيد، ولم يعد لنورة عملٌ على سطح البيت إلّا قليلاً فقد ساعدها عامر على إنزال كلّ ما يستلزم صعودها إليه، وتابعت علاقتها مع جيرانها إلّا عدنان فلم تعد تنظر في وجهه ولا تردّ تحيّته. إلّا أنّها تشاءمت من هذا المخيّم رغم هنائها ببيت مستقلّ وقريبٍ من أهلها ومن عامر .

كان سعد بوسامته وأناقته وكلامه المعسول يستطيع أن يحرّك مشاعرها النائمة، إلّا أنَّ سالم رغم فقده فهو لم يَزَل يسكن زاويته المخصّصة له في قلبها منذ النظرة الأولى، ثمّ إنَّ سمعتها وسمعة أخواتها وابنتها كانت أثمن عندها من كلّ رجال الأرض، وثقة أهلها بها تغنيها عن أيّ سعادةٍ محتملة .

فيضيق عليها البيت وتحسّ بإلحاح قلبها ومشاعرها للبقاء في القرية قريبةً من أمّها، تذهب ثمّ لا تلبث أن تعود .

''''''''''''''''''''''''''''''''''''

# شهلا

شقّتِ الشمس طريقها إلينا بصعوبةٍ بين الغيوم الكثيفة والأمطار، خرجت أمّي إلى البرّية القريبة من بيتنا تنفّس عن صدرها الطافح بالمرض والهمّ وتستنشق هواء آذار الذي انتصف، فأغوتها الأرض بثوبها الأخضر يراقصها النسيم اللطيف على صوت هدير الوادي القريب ودَعَتها أن تقترب أكثر لتقطف شيئاً من أعشاب الأرض، اقتربت إليها بصدرها المثقل وما أن انحنت قليلاً حتّى سمعت صوت الموت المخيف ينهرها فرفعت رأسها عن الأرض وعرفت أنّها عائدةٌ إليها قريباً لتسكن طيّاتها إلى الأبد، أحسّت أنَّ الموت أمسك بطرف قلبها يسحبها إليه فعادت بتثاقلٍ إلى الدار ودموع الوداع تُذرف على وجهها المُحمَّر، ما إن وصلت حتّى انطرحت على الأرض تتصارع مع الموت حاولت الاستعانة عليه بدوائها المعتاد لكنّها لم تفلح ازدادت ضعفاً ووهناً أمام قوّته.

صرنا نركض في شوارع القرية نستنجد بسيّارةٍ تنقلها إلى المشفى في المدينة وعندما عجزنا، لم يبقَ أمامنا إلّا الطبيب الذي نعرف جميعاً أنّه اشترى شهادته من البلاد الروسيّة، أتى وبيده حقنة كان قد أنهى بها حياة أكثر من مريضٍ من قبل، وحين أعطاها الحقنة انهارت أمام الموت الذي يمسكُ بخناقها، وصلت سيّارة الإسعاف و نقلت إلى المشفى لكن الموت كان

أقوى من كلّ الإسعافات. وقد أزفت نهاية عمرها الذي كتبه الله لها ، فسلّمت الروح بعد أن أنهكها الصراع الأخير. ذهبت دون وداع، حاملةً في حدقتيها صورة أختي التي رافقتها منذ اللحظة الأولى لمعركتها الأخيرة، رحلت تاركةً خلفها تلالاً من الحزن وجبال همٍّ يعجز عن حملها الأشدّاء، بكاها الجميع ، وبكاها جدّي أبو فاضل خليل طويلاً بدموعٍ حارقة فقد ودّع بها أوّل أولاده وأكثر من وقع عليه ظلمه من بينهم. أوجعني حزن أخي عامر فوق حزني لم أكن أعرف يومها ما الذي يجمع بين الأمّ وولدها البكر زيادةً على علاقتها بأبنائها الباقين مهما تعدّدوا، عرفت لاحقاً أنَّه الجناحان اللذان يبعثهما الله للأمّ على حين غرّة حين لم تكن بعد قد اكتشفت قدرتها على الطيران، فتحلّق بهما إلى سماء الأمومة الصافية وبكرها يرافق رحلتها يرتفعان معاً ويهبطان معاً يمنحها فرحاً مختلفاً يشفُّ معه قلبها وتسمو مشاعرها. وإنّ طفلةً كشهلا حين صارت أمّاً قسمت قطعةً من روحها أسمتها عامر فسارا معاً رفيقين على دروب الغربة الموحشة، تقاسما كسرات خبزها الجاف، شربا من مائها العسير وتنعّما أحياناً قليلةً بظلال واحاتها متحمّلين معاً طقوس أحمد المتقلّبة بين نار عصبيّته المفرطة ولطف حنانه ومحبّته، فاتّحدت روحاهما بجسدين منفصلين، واليوم قد خسر عامر الجزء الأغلى من روحه، لم يكن حزنه نحيباً ظاهراً بل كان نشيج روحٍ تعاني آلام الجَرح، كانت عيناه محمرّتين بائستين وهو صامتٌ كطفلٍ ذليل.

أمّا نورة فقد تركتنا في لجّة العاصفة أغمضت عينيها ودخلت في دهليز الكآبة المعتم، حيث حملت طفليها بعد مدّةٍ وجيزة وعادت إلى بيتها بالشام فلم يعد لها أُمٌّ في بيت أبيها، وراحت

تختلي هناك بحزنها الذي استولى عليها بطريقةٍ مختلفة، فنقمت على الحياة وقلَّ كلامها، لازمها العبوس وصارت عصبيّةً لا تطيق صوت أولادها، فاض القهر بها واسوَدّت الدنيا بوجهها، فقد انطفئ السراج الوحيد الذي كان يضيء عتمة حياتها. أفاقت أفكار تعاستها النائمة في قعر عقلها وصارت تتدحرج إلى وعيها وتتجمّع مثل كراتٍ سوداء حتّى صارت أكواماً تغلق كلَّ منافذ الهواء إلى روحها التي زادها الفقد هشاشةً، وصارت ذكريات طفولتها التي كانت تشبه الطفولة شبهاً طفيفاً تطفو على السطح، وحبّها لسالم الذي كان لها الباب الوحيد إلى السعادة وقد أغلقه والدها بوجهها بكل قسوة ، ومن بعده زواجها التعيس من هايل وغيابه الأفضل من وجوده في حياتها.

وظلَّ أبي شهوراً بلياليها ساهراً باكياً يلطم كفّيه أحدهما بالآخر يردّد أنّ المصيبة الفادحة تلك التي تترك خلفها مصائب أخرى، فقد رحلت عنه حبيبته ويتّمت له عشرة أولادٍ ، فكيف له أن يحتمل هذه الفجيعة المضاعفة، كاد يُجنّ كفراً وقهراً وذلّاً...

لم يبقَ معنا بعد العزاء إلّا جدّتي أمّ صالح التي وجّهت كل أنظارها وأحاسيسها إلينا منذ الليلة التي أغمضت أمّي عيونها عنّا، فرافقتنا شهوراً كان فيها الحزن يحتلّ أيّامنا بلياليها، سهرت معنا، بكت شهلا كثيراً ولكنّها بكت أكثر أحمد، رفيق روحها الذي عوّضها عن الأهل والولد، أحمد الذي أصابه اليوم سهمٌ جارحٌ في قلبه، في الماضي حين أصابه سهمٌ مشابه سحبته شهلا وكانت لجرحه البلسم والدواء أمّا اليوم فمن يعالج جرحه البالغ الذي ينزف من كل الجهات، ومن

يقدر أن يسحب السهم من بين ضلوعه التي سكنت فيها أمّ عامر قرابة ثلاثين عاماً، غمرتهم بالحبّ، تحمّلت فقره وطباعه، رافقته في غربته، كانت حبيبته التي يتباهى بأدبها وجمالها، تعلّم منها الكثير رغم صغر سنّها، أدخلت إلى حياته طيفاً من الروحانيّة بخوفها من الله و صدقها المطلق وإحساسها بالآخرين والتغاضي عن عيوب الناس والالتفات الدائم إلى بيتها وأولادها وردود أفعالها العاقلة والهادئة ، كانت له و لأسرتها ينبوع حنانٍ وإيثار، لكنّها رحلت شابّة لم تكمل ثلاثة وأربعين عاماً.

تركت أم صالح بيتها وزوجها وظلّت بجانبه تكفكف دموعه تقرأ له من كلام الله الذي يهدّئ النفوس وتحكي له عن مصائب الدهر عسى أن تهوّن عليه مصيبته، وبعد شهورٍ حين فشلت محاولاتها في ترطيب انفعالاته و قهره لجأت إلى تغيير مجرى القناة التي تصبّ في مساحات أحزانه الواسعة دون جدوى، فصارت أحاديثها له همساً استطعت أن استوحي منها أنّها تقترح عليه أن يتزوج من جديد، وعرفت من خلال نبرة صوته التي تبدّلت أنّه لم يرفض الفكرة ولم يقترح تأجيلها إلّا ليعثر على امرأةٍ تضاهي أم عامر بجمالها، وبذلك استطاعت أمّ صالح أن تعدّل مزاج أبي الذي وضع الحزن جانباً وانشغل وإيّاها بالتفكير في تجديد حياته. دون شعورٍ منهما أنّهما بذلك يفتحان على حياتنا سيل أحزانٍ جديدٍ طافت به أرواحنا. وكان الصمت جوابنا الذي لا حيلة لنا إلّاه فسكتنا في وجهه ورضخنا لقراره كما عوّدتنا أمّي.

.....

في حين كانت جدّتي أم صالح منشغلةً بتطبيب قلوبنا وتبديل ملاءات الحزن التي غطَّت البيت وغسلها بماء الرضى والقبول وسعيها الجهيد في حثّنا على التعايش مع الوضع الجديد الذي فرضه الله علينا، أتى الموت متسلّلاً إلى جسد أبي صالح العجوز، ما اضطرّها للابتعاد عنّا فترةً من الزمن ليست طويلة. وحين لم يبقَ في بيت العزاء إلا اقارب الفقيد وأبناء عمومته وقف الشيخ أبو محمود متّكئاً على عكّازه يسنده من الجانب الآخر أحد أبناء إخوته، وبعد أن ذكّر الحاضرين بمناقب الفقيد .

رفع صوته أكثر ليسمعوا ما سيقول فوقعت كلماته على مسامعهم كزخّة مطرٍ في يوم صيفيٍّ حارّ جعلت عيونهم تشرئبّ مستغربة ،حيث ترحّم على الفقيد وذكّرهم أنّ الرحمة تجوز على الأحياء أيضا لتشمل أمّ صالح التي عاشت مع زوجها العقيم عشرات السنين محافظةً على سرِّه بّالرضى والتسليم بنصيبها وارادة الله.

وقد كان أبو صالح قد أودع سره عند الشيخ بأنه يعيش مع زوجته كأخوين، حيث أصيب بصدمةٍ أودت به إلى عجزٍ جنسيّ حين استشهد أخوه على يده وهو في عزِّ شبابه لمَ يمضِ على زواجه أكثر من سنتين .

فترحّمَ الجميع على أمّ صالح التي ما زالت حيّةً ترزق .

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

# نورة

وكالعادة فقد تناست التوافه أمام الفواجع فتجمَّع رجال الحي بمن فيهم عدنان وسعد قدموا لتعزية هايل ونورة وعامر.
ومرَّت الأيّام والشهور على نورة متشابهة الحزن والقهر. تردّدت إليها جاراتها ومن بينهنَّ أمّ طلال يحاولن مشاركتها مصابها وتخفيف أحزانها، ونسيت نورة في سواد أيامهاتفاهة سعد وعدنان. يحضر عامر إليها يتعانقان كلّ يوم يبكيان على كتفيّ بعضهما البعض، يفنّدان معاً خطوط الفاجعة التي ألمّت بهم، يفكّران في أبي الذي ما زال شاباً في الخمسينيّات، هولن يبقى دون زواج والله أعلم بما تخبّئه الأيّام لنا جميعاً مع زوجة الأب.

''''''''''''''''''

أفاق عامر في بيت أخته لبس ثياب الشرطة مسرعاً إلى عمله فقد أخذه النعاس في الهزيع الأخير من الليل بعد ليلة قهرٍ طويلة، شرب قهوته التي أعدّتها نورة، أوصاها أن تخفّف من دموعها إشفاقاً على الطفلين وتهتمّ بهما أكثر وانطلق.
بعد حوالي ساعة وإذ بجرس الهاتف يرنّ رفعت نورة السماعة:
- ألو مين؟
- أنا سعد

ردّت بعصبيّة:
- ماذا تريد يا سيّد سعد؟
- فقط أريد أن أواسيك في حزنك.
- ومَن طلب منك ذلك؟ شكراً لك مع السلامة.
هذا الردّ العنيف أثار سعد أكثر وجعله في تحدٍّ جديد مع جارته الجميلة التي قد تكون أضعف الآن بسبب أحزانها، وصار الطريق إلى تسليتها والتخفيف عنها عنصراً مساعداً في اقتحام حياتها مقفلة الأبواب، فأصرَّ أكثر على الوصول إلى مبتغاه، كرّر اتصالاته وكرّرت ردودها الغاضبة تغلق الخطّ أحياناً وتوبّخه أحياناً أخرى، متّخذةً قراراً أن تحلّ مشكلتها بنفسها .
مرَّت شهورٌ عديدة الحزن يتغلغل في أعماقها أكثر ويزيد من عتمة روحها، يتملّكها أكثر حين تهرب منه إلى القرية و تدخل بيتنا الذي انطفأت أنواره برحيل أمّي تحاول مساعدتنا وتفشل لأنّ مسؤوليّاتنا قد تضاعفت كثيراً، فالبيت يعجُّ بالأطفال والأطفال يحتاجون لأمّ والأمّ رحلت. تجد أنّ وجودها يوقد جمر أحزاننا والهمّ الذي تحمله بين ضلوعها يزيدها ويزيدني عذاباً وقلقاً، وطفليها اللذين صارت أمّهما عصبيّةً وقليلة الاهتمام بهما ازدادا شقاوةً وعنفاً، فتعود لتتخبّط بوحدتها.
عصبيّتها وأسلوبها العنيف مع سعد الذي يعتبر نفسه زير نساءٍ لا تفلت منه امرأةً، زاده عناداً وإصراراً فصار ينتظر صعودها القليل جدّاً إلى السطح ليبدأ بالصفير والإيماءات الفاضحة والتصرّفات المخجلة دون أن يعير انتباهاً لأحد، وصار بذلك يمدّ لعدنان خيوطاً جديدةً لحياكة ستارته مع

يوسف فيذيعان الأخبار في الحيّ والقرية حتّى تكتمل الصورة التي يرسمانها معاً ويحقّق كلّ منهما مبتغاه.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

خيّمت الكآبة والضجر على أمسية نورة التي صادف فيها غياب عامر وعادل معاً كلٌّ في مكان خدمته، وانسدل الليل دون أن يترك لها بصيص نورٍ في عتمة قلبها المنكمش، فإذا بجرس الهاتف يرنّ آتياً معه صوت سعد مستعجلاً، وقبل أن يلقي التحية أخبرها أنّه يعلم أنّها وحيدةٌ هذه الليلة وهو قادمٌ إليها.

ثارت بوجهه وأخبرته أنّ بيتها سيكون قبراً له إن تجرّأ على ذلك لكنّه أغلق الخطّ. لم يصدّق كلامها فهو معتادٌ على مثله من نسوةٍ كثيراتٍ، بل إنّ صدّها له قد ضاعف من شبقه وشهوته حتّى عميت بصيرته.

ارتجف قلبها وتملّكها الخوف إذ تخيّلت الأمر، هي تخاف من هذه السطوح التي لا يفصل بينها إلّا حيطاناً واطئة وقد طلبت من هايل كثيراً منذ أن داست قدمها أرض البيت أن يصنع باباً يفصل الدرج عن السطح إلّا أنّه كان يؤجّل الموضوع على أنّ الدنيا بخيرٍ وأمان ولن يجرؤ أحدٌ على الاقتراب من بيت ضابطٍ مزوّدٍ بالسلاح.

فكّرت ماذا تفعل وهي لا تعرف أرقام أماكن خدمة هايل أو عامر العسكريّة.

طفلاها نائمان وبوّابة الدار مقفلة لن يجرؤ عليها سعد على مرأى الجيران و المارّين، ليس له منفذ إلا باب السطح، أقفلت أبواب الغرف، دخلت غرفة النوم أقفلت الباب، استجمعت

قواها حتّى أزاحت السرير خلف الباب، أحضرت المسدّس الثاني الذي يتركه هايل عادةً في البيت والذي لم يخطر في بالها أبداً محاولة التعرّف على طريقة استعماله من قبل، جلست على حافة السرير التي صارت قريبة من الشباك، ومدَّت يدها حاملةً المسدس من فتحةٍ في شبك الحديد وانتظرت كلبؤةٍ غاضبة مستشرسة، حزنها على أمّها استثار كلّ أوجاعها القديمة والجديدة وحوّلها دفعةً واحدة إلى غضبٍ عنيف ونقمةٍ على الحياة، جلست خلف الشبك والخوف والغضب يسريان في كلّ خلايا جسدها المرتجف، إصبعها يرتعش على الزناد ، تتخيّل مشهد رجلٍ مقتولٍ في بيتها والدم ينزف منه، ثم تنظر إلى طفليها النائمين يكاد يغمى عليها من الرعب حين تتخيّل نفسها قاتلة تقف أمام القاضي مكبّلة الأيدي تخبره عما حصل، ثمّ وإن كان المسدّس فارغاً وحاول خلع الباب ماذا ستفعل؟ هل ستصرخ وتلمّ الجيران وترعب أطفالها؟ وبعدها ما ستكون ردّة فعل هايل وأهله وأبيها حين تصبح هي وبيتها خبراً يتناقله الناس كلٌ على طريقته فتصبح موشومة هي وأخواتها وابنتها دهراً من الزمن؟ وإن خاف من المسدّس ورجع بصمت فقد يكون أحد الجيران قد لاحظ نزوله إليها وبكلّ الأحوال ستكون هي المتّهمة الوحيدة...
كلّ تلك الأفكار والتوقّعات برمت في رأسها كزوبعةٍ قويّة وجعلت جسدها يرتجف، توسّلت إلى الله أن يجعل ذلك كلّه أوهاماً وأن يردعه أمرٌ ما عن القدوم.

.....

كانت مباحثات يوسف وعدنان تسير على قدمٍ وساق ، تتوالى زيارات يوسف إلى الشام بحجّة مهمّاتٍ وظيفيّة وغرفة عدنان هي الفندق الذي ينزل فيه، يلعبان الشدّة مع شلّة الحيّ في المساء ويسهران الليل يفكّران بطريقةٍ يغسلان فيها شرف العائلة، عدنان يحاول أن يشغل يوسف عن قصّة أمّه التي عادت بكلّ جرأةٍ للعيش في القرية مع زوجها والطفلتين اللتين أنجبتهما منه، يوسف يؤكّد أنَّ موضوع نورة مؤجّل لحين الانتهاء من موضوع فيزة ،عدنان يغافل يوسف ليتحسّس قلبه الذي يضخّ في عروقه دم أمّه، تتراءى له صورة وجهها الجميل ويستذكر رائحتها التي ما زالت تعشّش في صدره كأنفاسه، صوتها الذي ما زال محفوراً في ذاكرته تدندن له أغاني الدلعونة تَعده فيها بالفرح وتقول:

(نذرٍ عليّ وإن شفتك عريس لأضوي مشاعل بالشام وهونه)

لكنّه يفطن أنّه لن يكون يوماً العريس الذي دغدغت أمّه أحلامه بصورته ثمّ ما لبثت أن سحبت الصورة معها وغادرت لأنّ أحداً لن يرضى أن يزوّجه ابنته ما لم يغسل عاره...هذا ما يذكّره به يوسف كلّ يوم.

يبحث يوسف عن طريقةٍ يغسلون فيها العار دون التعرّض للمساءلة أو السجن ويمور في صدر عدنان سؤالٌ يخجل أن يبوح به ليوسف ..هل الهواء خارج قضبان السجن كفيل بأن يمسح صورة أمّي وصوتها من ذاكرتنا؟ وهل للنار التي ستحرقها أن تكوي ندوب أرواحنا أنا وإخوتي فتمحوها؟ يخجل أن يقول له إنّي مشتاقٌ لقبلة أمّي وبي شهيّةٌ للقمةٍ من يد أمّي وكأس شربت منها أمّي من قبلي.

فيهزّ رأسه موافقاً على خطّة يوسف ويعده أنّه سيقنع أخاه الذي لم يزل تحت السن القانوني وسيسعى لتأمين السلاح المناسب له. وحين ينطفئ النور يغطّ يوسف في نوم عميق وعلى صوت شخيره تعلو وتهبط زفرات الغلّ الذيً يجتاح عدنان منذ زمن.

"""""""""""""""""""""""""

انتظر سعد حتّى نام أهل الحيّ وانطفأت أغلب الأنوار ومن على شرفته كان يراقب الدار المقابلة له والتي يتّصل سطحها بسطح بيت هايل، وحين شعر أنّ كلّ ساكنيها قد خلدوا للنوم وبعد منتصف الليل صار الوقت مناسباً له ليخرج في الظلام كخفّاشٍ يبحث عن فريسة ويغزو الأعشاش الهانئة، نزل من بيته وبكلّ هدوء خرج من بوّابة الدار ودخل البوّابة المقابلة تماماً والمفتوحة دوماً كغيرها من بوّابات الدور التي تضمّ عدداً من المستأجرين، صعد الدرج بخفّةٍ وهدوء، وحين صار على السطح لم يعُد الأمر يحتاج منه إلّا أنّ يرفع ساقه وينقلها إلى السطح الملاصق فينتقل إليه بكلّ سهولة وينزل الدرج الواصل إلى بيت نورة .
كان القمر يلقي ظلاله الشاحبة على السطوح حين ألقى قدمه على سطح بيتها، شعرت بها نورة بحواسها المتوجّسة والتي تكاد تسمع دبيب النملة، تسارعت نبضات قلبها وتجمَّد الدم في عروقها، ركع سعد على ركبتيه ليضمن اختفاءه خلف الجدران التي تسيّج السطح زحف على الأرض الإسمنتيّة الخشنة في ظلّ الجدار باتّجاه الدرج، حين غاب صوت خطوات أقدامه انتابت نورة الحيرة وصارت تتلفّت يميناً ويساراً، خُيل إليها أنّه سيخرق أحد الجدران ويدخل، حملقت

عينيها، وازدادت رعباً حين لاح خياله على المساحة الفاصلة بين شقّي الدرج وكادت تنهار، لكنّها تماسكت بكلّ الغضب المدفون في صدرها.
وحين صار سعد في مأمن عن العيون الساهرة والنائمة في ظلّ بيت الدرج وقف ونفض الغبار عن بنطاله الجينز ومرفقيه وكفّيه وعدَّل قبّة قميصه وهو يشعر برغبةٍ عارمة للوصول إلى تلك الفرس الجامحة التي أتعبته مطاردتها في الحلم واليقظة، وبشهوةٍ شبقة للانقضاض على الجسد الفتيّ الذي منّى به نفسه طويلاً كوجبةٍ جنسيّةٍ دسمة تغنيه عن الفضلات التي تقدمها له بنات الليل.
صار خياله يقترب وهو ينزل الشقّ العلويّ من الدرج، فأحسّت نورة بقربه ووضعت يديها الاثنتين على المسدّس وتهيّأت بجسدها المنتفض وعينيها الخائفتين، وحين صار مواجهاً لها ورأى ما تهيّئه له تسربل خوفاً، نظر في عينيها الغاضبتين وقبل أن ينطق بحرف صرخت بلهجةٍ قويّة وصوتٍ مترجرج:
- ارجع وإلّا قتلتك...
هربت منه رغباته فجأة وحلّ محلّها الخوف، فالتفَّ راجعاً، وحين وصل إلى المساحة الفاصلة بين شقّي الدرج شعرت أنّه أخذ منها شيئاً وانسل هارباً.
تجمّدت في مكانها حين أحسّت بخطواته تبتعد على السطح إلى أن غاب صوتها نهائيّاً، رمت المسدّس من يدها وارتمت على السرير تمرِّغ وجهها عليه وتجهش بصوتٍ مسموع والآه تخرج من صميم أعماقها النازفة قهراً وحزناً وخوفاً تنادي ربّها وحسب، لا تعرف أتشكو له أم تعاتبه. تخفض

صوتها حين تتذكّر وجود طفليها النائمين ثم تنسى ما حولها وتعود تتقلّب على جمر القلق . كانت ليلةً طويلة ومؤلمة ظلّت تفرك لها عينيها بأصابع مدببةٍ كرؤوس الإبر حتّى تورّمت أجفانها وانقلب بياضهما إلى لون الدم، تتساءل حين يرهقها النحيب ماهي فاعلةٌ الآن وقد وصلت الأمور إلى هذا الحدّ؟ ستخبر هايل وعامر أكيد ولكن هل سيحسنان التصرّف أم أنّ فضيحةً تلوح لها في الأفق القريب ستجعل الجميع يتّهمونها بأنّها هي التي تركت الباب مواربًا لسعد ..؟، كادت تصاب بانهيارٍ عصبيّ، حين طلع الصباح واستجمعت قواها مرّةً أخرى أزاحت السرير من أمام الباب ودفعها الفضول لتطلّ من شبّاك الصالون المقابل لشرفة بيت أمّ طلال، فإذا بسعدٍ هناك وقد استغلّ غياب أخته عن البيت في زيارة أهلهم في القرية فعلّق على حبل الغسيل بلوزة نورة التي يعرفها عليها كلُّ سكّان الحيّ وجلس على شرفته يشرب قهوته وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

تذكّرت أنّها تضع سلة الغسيل المتّسخ على مطلع الدرج.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

أخذت نورة تركض في أنحاء البيت بغضب، تبكي، تضرب رأسها بيديها تضرب جبينها بحافّة الباب الخشبيّة، أريد عامر أين هو عامر، أين أمّي أريد أمّي، تطلّ من النافذة فترى بلوزتها تلوح على شرفة أمّ طلال وهو يشرب قهوته متفاخراً سيعرف أهل الحيّ بأنفسهم دون تفسير كيف وصلت قطعة من ثياب نورة إليه.

إلى أن عاد هايل من عمله عند المساء... ولاحظ الجمر العالق في عينيها وعلى وجهها فظنَّ أنّ نوبةً قويّة من نوبات حزنها على أمّها قد فعلت بها ذلك، لم يهتمّ للأمر كثيراً فما زال جرحها طريّاً ينزف ولابدّ أن يلتئم يوماً، سألها عن طعام الغداء وإذا بها تنفجر بالبكاء وحين أخبرته عن المصيبة الجديدة التي حلّت عليها وعمّا كانت تخفيه عنه ، استشاط غضبه وزمجر موجِّهاً إليها تهمة إبقاء الباب مواربا، وأنّها لهذا السبب لم تخبره من بداية الأمر.

وقبل أن يبدّل ملابسه حمل مسدّسه وخرج، حاولت أن تمنعه وتتوسّل إليه أن يجد طريقةً يؤدّب غريمه بها دون إثارة فضائح إلّا أنّه دفعها جانباً وفتح باب البيت وأطلق صوته يلعلع في الحيّ ينده على النذل الذي تجرّأ على الاقتراب من بيته وعِرضه في غيابه، صوته الغاضب جعل الجيران يخرجون من بيوتهم ويتجمعون، هرع مسرعاً والشرّ يتطاير من وجهه وعينيه ليثأر لشرفه. دخل من بوّابة الدار نادى على ابن خاله عدنان الذي دبّت في رأسه حميّةٌ ونخوة كاذبتان وفي أعماقه يقهقه سعيداً بالهديّة التي يقدّمها له هايل. هاجما البيت معاً، كان سعد قد خبّأ البلوزة قبل أن يعود زوج أخته من عمله وغادر البيت تاركاً أصحابه يواجهون عواقب فعلته فانصبّ غضب هايل وثورته على أبي طلال الذي كان نائماً وقبل أن يفتح عينيه ليعلم ما الذي يحدث باغته الرجلان وأبرحاه ضرباً يسألانه عن الواطي سعد، ثمّ أشهر هايل مسدّسه وأطلق النار على صورة سعد المعلّقة في صدر البيت فتجمّع الجيران وارتفعت أصواتهم وعلا صياح عدنان وهايل وتهديداتهم وانتشرت الغوغاء في المكان وكثرت التكهّنات،

كلّ ذلك ونورة تقف على شبّاك الصالون تسمع وتشاهد الفضيحة التي خافت منها شهوراً طويلة، تتذكّروصيّة أمّها بالحفاظ على السرّيّة التامّة.. سمعت بعض الكلمات التي تنطق اسمها "أم حاتم" مؤكد أنّ بلوزتها التي ظلّت ساعاتٍ تلوح على الشرفة هي الدليل على أنّ القصّة قصّة عرضٍ وشرف، وصار الضجيج يرتفع في رأسها أكثر، تذكّرت نظرة أبيها التي توعز بالخجل والخوف وتراءت لها صورة عامر يحمل حاتم يمشي به في الحيّ مرفوع الرأس، هل سيفعل ذلك بعد اليوم بعد أن صار حاتم ابن أختته ذات السمعة السيئة؟ هل ستدخل بيت أهل زوجها شامخة الرأس أم مطأطئته؟
لحظاتٌ عاصفة أودت بها إلى التشتّت والضياع وجدت نفسها بعدها أمام درج الدواء في المطبخ، تفتح علب دواء لا على التعيين وتغبّ معها الماء، تعود تفرط رزمةً جديدة ترميها في فمها بيدٍ تهتزّ مسرعةً واليد الأخرى تمسك بكأس الماء تملؤه ثم تسكبه في فمها مغمضة العينين، لا تريد أنّ ترى شيئاً ولا أحداً مطلقاً، رمت الكأس من يدها وارتمت على سريرها وجهها على المخدّة وأصابعها تسدّ أذنيها وراحت تتقلّب مطبقةً فمها بقوّة كي لا تتقيّأ حين داهمها الغثيان.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

بعد ساعاتٍ فتحت عينيها قليلاً لترى عامر يجلس فوق رأسها يمسك بيدها وباليد الأخرى يحضن حاتم على ركبتيه، قبّلها من جبينها حامداً الله على سلامتها، التفتت إلى الجهة الثانية شاهدت هايل بوجهٍ شاحب ، ينظر إليها نظرة عتبٍ ومحبّة، نظرت إلى إيلين التي كانت بجانبه ،ودمعت عيناها ،نظرت

إلى السقف والجدار عرفت أنّها في المشفى وعادت إلى غيبوبتها، وفي اليوم التالي كانت في بيتها وعلى سريرها، هايل بجانبها حصل على إجازة للعناية بها وبالأولاد وظلّ يراقب بيت سعد من شبّاك الصالون إلّا أنّ سعد اختفى من الحيّ بعد أن وصلته الاخبار.

"""""""""""""""""""""""""

اكتملت الصورة أخيراً في رأس عدنان، فانطلق إلى القرية في جعبته خبر الموسم الذي لن يحتمل عليه صبراً حتّى يتسّرب إليها تلقائيّاً، بل حمله كقنبلة سيسحب صمّامها لتنفجر في ساحتها اليوم.

في الحافلة أغمض عينيه تخيّل كيف سيصمّ صوت انفجار قنبلته الآذان عن سيرة أمّه، والغبار الذي ستثيره فيُعمي العيون عن الفاعل وما يبغي من فعلته، تمنّى لو أنّه يستطيع أن يكتب خبر نورة وقصّة محاولة انتحارها بقلمٍ عريض على شوارع القرية على كلّ حجرٍ وفي كلّ زاوية، شطح به خياله قرّر أن يجعل القصّة مثيرةً أكثر إن زاد عليها جملتين لا أكثر ( أمسكها أخوها بالجرم المشهود).

في ضيافة يوسف أفاق عدنان من حلمه فهو لا يستطيع أن يضيف الجملتين. امتقع وجه يوسف ورفض أن يذاع الخبر بهذه الطريقة الفاضحة فالذي ستلوكه الناس هو اسم أخيه وبالتالي اسم العائلة ما سيفعله وحسب هو تحريض هايل على طلاق نورة لينقلب العار على أهلها فقط.

لكنّ عدنان لم يرضَ أن يطوي ستارته التي تعب في حياكتها شهوراً بهذه السهولة، فهو يعرف لمن يسلّمها لتُعَلّق على

الملأ، غافل يوسف وهمس الخبر المختصر بأذن عمّته وابنتها وعاد إلى الشام حاملاً رسالةً إلى هايل، على نفس الحافلة التي جلبت معها عامر إلى أبيه يخبره بما حصل قبل أن يتسرّب إليه خبرٌ يشوّه الحقيقة.
اصفرّ وجه أبي عامر وتوسّعت أجفانه، حملق جيّداً في عيني عامر وسأله بشفاهٍ متلعثمة:
-منذ متى تتعرّض أختك لهذه المضايقات ولم يخبرني أحد؟
ردّ عامر بارتباك:
- من قبل وفاة أمّي، كان ذلك بناءً على طلبها خوفاً من ردّة فعل غاضبة تصدر عنك.
سكت أبو عامر على غير عادته ولم يلقِ اللوم على ابنه، انتظر عامر كلمةً منه تخبره عمّا سيتصرّف إزاء ذلك، أو ردّاً يسكت ضجيج خوفه وتوقّعاته، وعندما ظلّ أبوه ساكتاً شعر أنّه السكون الذي يسبق العاصفة .
كانت أمسيةً كئيبة أمضاها عامر معنا والدمعة متجمّدة في عينيه اللتين صارتا محمرّتين دوماً، وكان الشتاء قد بدأ يبعث أحماله من الغيوم المتراكضة مع رياح الخريف الصفراء، خيم الصمت والحزن على الغرفة التي جمعتنا فلم يعد للسهر على البرندا أيّ طعمٍ في غياب أمّي ولا أحدٌ منا عاد يفطن أصلاً أن يضيء اللمبة الوحيدة عليها. أختي الصغيرة ذات الثلاث سنوات ترقد في حضني تتحسّس وجهي بين الحين والآخر، تبحث عن ملمس وجه أمّها، تخبّئ رأسها في صدري علّها تجد رائحةً تعوّض عن رائحتها.عامر لم يحدّثنا كعادته عن الشام وعن سوق الحميدية والمساجين الذين يشرف عليهم ويهدون إليه أساور وجزادين الخرز، كان كئيب

الملامح شارد الذهن فانتقل شروده إلينا بالعدوى، أمّا الكآبة فقد كانت رفيقتنا في حضوره وغيابه. وعندما طلع الفجر كان أبي يوقظه كي لا يفوته الباص فيتأخّرعن عمله، قال له أنا واثق من أخلاق أختك وتربيتها وسأعرف ما سأتصرّف. فانفرجت أساريره وعاد إلى نورة يحمل في صدره حيّزاً ضئيلاً من الراحة يهديه إليها.

كان أبي قد أمضى ليلته ساهراً على جناح الذكريات، يستذكر يوم سكتت نورة واعتقد حينها أنها راضية بزواجها من هايل،وجه أمّي المحمّر خوفاً وخجلاً حين ذكرت له إسم سالم وجوابه الصارم بالرفض وأمره إيّاها أن تدفن الموضوع بأرضه ولا تحاول أن تذكره ثانيةً أبداً،تساءل في قرارة نفسه، لو كان رضي بسالم زوجاً لابنته أما كان ارتاح باله عليها أكثر؟ أو ليس من المتوقّع أن يحافظ سالم على نورة ويحميها مثلما حافظ هو على شهلا رغم الفقر وصعوبة الحياة؟ وأقرَّ أنّ أموراً كثيرة كانت ستتغيّر لو أنّه تأنّى قبل قفزته المتسرّعة ليطال النجوم الذهبية على كتفي هايل، دون أن يفكّر بمدى قوّة هاتين الكتفين، إلّا إنه لم يتوقّع أبداً أنّ تصل هشاشة هايل وسذاجة تصرّفاته إلى هذا الحد.

أبو عامر يعرف تماماً الصلاحيّات التي استحوذ عليها الضبّاط في البلد لحلّ مشاكلهم والتي قد تصل أحياناً إلى تجاوز حدودهم والتعدّي على حقوق الاخرين من أجل مصالحهم الخاصّة، فهل عجز صهره عن تأديب ذاك النذل بسرّيّةٍ وصمت ومن دون هذه الفضيحة المجلجلة التي ستصبح سيرةً على كلّ لسان. وتذكّر صوت شهلا المتأتئ حين نقلت له رسالةً عن لسان نورة أنّها تريد أن تفسخ خطبتها

على هايل لانعدام الحبّ والانسجام بينهما وكيف حاولت أن تذكر بعض التصرّفات التي تدلّ على ضيق أفق هايل وبساطة تفكيره لكنّه كان شديد العناد يلوّح دوماً بعصا التخويف التي تعمي الأبصار، ويحبّ الزهوَ كثيراً، فقد كان يزهو حين يشاهد وسامته في المرآة، وزها أكثر ببدلته العسكرية، وازداد زهواً حين زوّج ابنته لضابط تلمع على كتفيه النجوم.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

همسة عدنان في أذن عمّته كانت بمثابة ولعة تحت طبختها التي رغبت بإعدادها لنورة مذ رأت لمعة الاعتزاز في عينيها، وقد ساءتها تلك العلاقة الجافّة بين ابنها وزوجته والتي أرجعت كل أسبابها إلى أنّ كنّتها تستكثر نفسها عليهم بدلاً من السجود لله شكراً وامتناناً أنهم قبلوا بها بينهم.
فاحت رائحة طبخة أمّ يوسف بين البيوت القريبة وانتقلت أخبارها إلى الأبعد، رائحةٌ تفتح الشهيّة لمزيدٍ من الأقاويل، طعمها حامضٌ إنّما فيها شفاءٌ لابنها من سوء الحظّ والتعاسة مع زوجة خائنة.
فتح هايل الرسالة التي أوصلها له عدنان من يوسف بحضور نورة، كانت رسالةً واضحة وجريئة يعلمه فيها أنّه على علمٍ منذ مدّة بأمر العلاقة بين نورة وشخص آخر، وأنّ ما جرى بالأمس يؤكّد ذلك ويطلب منه أن يغسل عاره بطلاقها وردِّها إلى أهلها ليكون عارها عليهم فقط. طوى هايل الرسالة ونظر في عيني نورة الحزينتين وإلى طفليه بحضنها، سألته عن الرسالة فأخبرها بفحواها وأتبع كلامه بلومها على سكوتها

عن الأمر لدرجة أن يعلم به أخوه في القرية قبله، وبظنّه أنّها حاولت أن تخبّئه لغايةٍ في نفسها لم تتوقّع أن تصل إلى هذا الحدّ. جاوبه حزنها وعيناها اللتان انقلب حزنهما إلى غضبٍ وسخرية وصوتها الذي يلتفّ عليه البكاء يعتصره فيصيح متألّما، إنّها الآن تلوم نفسها أكثر على إخباره وعلى تصرّفه الطائش الذي فضح أمراً كتمته شهوراً .
هايل واثقٌ وليس بحاجةٍ لأن يخبره أحد بأنها لو أرادت الخيانة لما حدث ذلك لكنّ ما حدث حرّك في أعماقه شيئاً خفيّاً لم يعرف كيف يفسّره، قد تكون غيرة لكنّه غير متأكّد ، فهو لم يجرّبها من قبل، ليس لثقته بنفسه غير المنقوصة ولا لعلمه بمكانته الكبيرة في قلب نورة فهذه الأفكار لا تراوده مطلقاً.
إصراره على رأيه وظنونه زاد من عتمة البيت الذي أغلقت نورة نوافذه وأسدلت ستائرها بيدين شاحبتين، فقد مشت الكآبة في عروقها مع الدم جنباً إلى جنب.
في اليوم التالي عاد هايل إلى عمله فأوصته أن يغلق الباب خلفه لأنّها لا تريد رؤية أو سماع صوت أحد من سكان الحيّ.
وأتى عامر مساءً يحمل بيده لعبةً جديدة لحاتم وإيلين وعلى وجهه ابتسامةٌ موشّاة بالحزن، أمسك بيد أخته الباردة وقبّل وجنتيها الشاحبتين وجلس قبالتها يتأمّل عينيها الذابلتين، طفقت تبكي وتجهش أكثر عندما سألها عن أحوالها أجابته:
: إنّ المشهد الذي ماتت أمي رعباً وخوفاً منه ها هو اليوم صار حقيقةً وخبراً يتناقله اهل القرية وقد بدأت صوره تصل إلينا وأولها رسالة يوسف إلى هايل..

الرسالة التي أوصلها عدنان نفخت على الرماد الذي يخبّئ عامر تحته جمر الغضب بصدره، فشبَّت نيرانه وهبَّ يريد أن يخرج إليه ليجعله فرجةً لأهل الحيّ إلّا أنّ نورة هجمت وألقت جسدها على الباب وأجهشت بكاءً تتوسّله ألّا يجدّد الفضائح ولا يفتح عليها نافذةً جديدة لريح القيل والقال، فأشفق عليها وخاف أن تنهار مرّة أخرى وتكرّر فعلة الأمس.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

لم يستشر أبي أحداً لا أمّ صالح ولا أمّه ولا أبيه، استشار قلبه فقط فتوجّه إلى الشام حين وصلته رائحة طبخة أمّ يوسف وأولادها.

كانت السماء مسودّةً تنذر بشتاءٍ قاسٍ والريح تصفر من شبّاك الحافلة، الطريق يمرُّ وسط القرى بين البيوت، وهو ينظر إلى البيوت التي أغلقت أبوابها بوجه البرد والريح يتحدّث إلى ذاته المتعبة يحاول أن يتماسك يؤكّد لها أنّ كلّ هذه البيوت قد جرّبت الموت ومازالت قائمة، سكّانها عادوا إلى حياتهم الطبيعيّة يعملون ويزرعون يأكلون يتزوجون ويتوالدون، الموت ليس مصيبة على رأي أمّ صالح المصيبة هي أن يسلط الله على الإنسان ألسنة الناس.

إنّ موت أمّ عامر انغرز بقلبه كنصل سكّين جعله ينزف نزيفاً صاعقاً لولا أنّ الصبر المُرّ أوقف النزيف رويداً رويداً. لكنّ الوقع المفاجئ للفضيحة التي عاش عمره كلّه خائفاً منها أتى كانفجارٍ كاد أنّ يشتّته نتفاً لولا قوّته. الموت قاهرٌ لكنّه أمر الله وعليك أن ترضى، أمّا الفضيحة قهرها مضاعف فهي تجعلك تفكّر بالانتقام الذي يفاقمها أكثر. تخيّل لو أنّ الموت

استطاع أن يأخذ منه نورة،وضع يده على قلبه الذي كان سينزف طول العمر دون دواء.
ولم يهدأ الضجيج بداخله إلّا مع توقّف الحافلة، نزل ومشى في شوارع الشام، تذكّر آخر مرة زارها بصحبة أمّ عامر منذ أكثر من عشر سنوات حين توسّلت إليه كثيراً تريد زيارة أبيها وإخوتها، وصل إلى المخيّم الذي رفض العيش فيه وأيقن الآن أنّ عناده جعله يندم مرّاتٍ كثيرة. فقد حكم على الأولاد وأمّهم بالشقاء وتدني مستوى تعليمهم وتدهور صحّة أم عامر.
فتحت نورة الباب بعينين منكسرتين، طأطأت رأسها حين رأته مدَّ إليها يده الدافئة بالحبّ الباردة مما اقترفته بحقّها ، ومدَّت يدها العطشى للحنان، قبَّلت يده بشفاهٍ مرتعشة وأبدت الخضوع بإيماءةٍ من جسدها الهزيل ، فقبَّل وجنتيها وحبس دموعه عنها. حين جلس طلب منها الجلوس ونظر في وجهها فلم يرَ فيه إلّا الذُل، وحين بدأ يكلّمها ويسألها عن أحوالها انفتح مدرار الدمع على وجهها الشاحب، أحسّ بانشطار قلبه لانكسارها وضعفها فتماسك كي يجعلها تستمدّ بعضاً من قوّته وقال لها بصوتٍ عالٍ:
- تماسكي يا ابنتي فأنا إلى جانبك وواثق من تربيتك فأنت ابنة شهلا وأنا متأكّد من أخلاقك.
رفعت رأسها ومسحت دموعها بكفّيها وفتحت أجفانها أكثر كي ترى وتتأكّد أنّها ليست في حلم، لقد أخبرها عامر عن ردّة فعل أبيه الهادئة لكنّها لم تصدّق، ظنّت أنّه يخفّف عنها خوفها وخجلها منه.
نظرت في عينيه تبحث عن نظرته التي اعتادت فيها الخجل والخوف فإذا بها اختفت، وإذا بعينيه الواسعتين تبعثان أطيافاً

من العطف والحنان لم تلحظه من قبل، فقد كانت مسحة الجدّيّة تبني بيننا وبينه كثبان خجلٍ تحجب عنّا رؤية عينيه جيداً حتّى في ساعات صفائه وحميميته. شعرت بدفءٍ يسري في خلايا جسدها وأنّ الدم عاد يتدفّق فيها فانتعش معه قلبها، طلب منها أبوها أن تغسل وجهها وتمشّط شعرها وأن تحضر له طعام الفطور. تناولا فطورهما كلٌّ منهما يمضغ اللقمة ببطءٍ ويبتلعها بجهدٍ مخفيّ فهناك في الحلق غصّتان يحاولان تجاهلهما، وحين انتهيا من هذه المهمّة الصعبة طلب إليها أنّ ترافقه إلى القرية لتبقى في ضيافته فترةً تستعيد فيها نشاطها وصحتها بعد الوعكة التي كادت تفقدها حياتها.

.....

خبّأ عدنان البندقية في حقيبة ثيابه التي حملها في زيارةٍ لإخوته الذين عادوا للعيش في بيت أبيه في القرية. وحمل بيده الهديّة الشاميّة المعتادة كيساً من كعك الشام وآخر من الخبز الصمون وفي رأسه خطّةٌ محكمة لقّنه إيّاها يوسف لإقناع أحدهم بتنفيذها. كان يعرف أنّ إقناعهم بضرورة غسل العار يحتاج إلى جهدٍ كبير بعد أن خاصمهم فترة من الزمن حين بدأت تتسرّب الأخبار إليه بأنّهم يتواصلون مع أمّهم،كان يحاول ردعهم فيؤنّبهم غاضباً وفي أعماقه يحسدهم أنّهم أطفأوا نيران الشوق التي تكوي ضلوعه وتؤرّقه ليالٍ طوال.
لكنّ الثلاثة أعلنوا التمرّد على قوانين القبيلة وأطاعوا أوامر قلوبهم، فراحوا يرتمون في أحضان أمّهم كلّما ناداهم صوت أمومتها الذي عاد إليها خجولاً مبحوحاً . يوم نسيتهم زغاليلَ

ينتظرونها في العشّ وراحت تأكل العسل بعيداً عن العيون وحين عادت من رحلتها التي امتدّت سنوات مرّت من فوق العشّ وجدته مبعثراً، نادت زغاليلها بصوتٍ خجول فاخترقت ذبذباته أجسادهم وحرّكت في قلوبهم الدم الراكد الذي ينقصه لفظ كلمة أمّي حتّى يعود للجريان في العروق، صوتها الذي أيقظ حنينهم لرائحتها المختبئة في مكانٍ آمنٍ بين ضلوعهم بعيداً عن رياح القهر والذل، ولرؤية وجهها الذي التصقت صوره في زوايا البيت وخلف النوافذ كان يطلُّ عليهم في ليالي الجوع و البرد يرمقونه بعيون العتب فيضحك ساخراً ثم يغيب، إلى خيالها الذي كان يقبع خلف الباب طارقاً وإذا بالريح تشاكسهم معه حين يسرعون ويفتحون، ومع ذلك لم يملّوا وظلّوا ينتظرون عودتها أيّاماً وسنوات.
حين عادت من غيبتها الطويلة صار الناس يلوكون سيرتها مذ يفتحون عيونهم في الصباح على بطونٍ خاوية ثم يبصقون في الشوارع فتفوح رائحتها الكريهة في القرية. لكنّ أولادها الثلاثة الأصغر زكم الشوق والحنين أنوفهم ولم يعد يدغدغها إلّا رائحة أمّهم القاطنة بالقرب منهم، فصمّوا آذانهم عن كلّ محاولات عدنان لجعل أحدهم أداةً لغسل عاره ورفضوا رفضاً شديداً أن يضيّعوا من بين أيديهم النعمة التي التاعوا بانتظارها طويلاً.

.....

عاد أبي إلى البيت وحيداً، فقد رفضت نورة دعوته لزيارتنا خوفاً من انتشار شائعةٍ جديدة بأنّ هايل طلّقها إكمالاً لقصّتها التي صارت أم يوسف تطوف بها على المقرّبين وهم بدورهم

يطوفون بها حيث تدّب أقدامهم، أخبرته بأنّها ترتّب أمورها لترافق زوجها إلى لبنان حيث كلّف بمهمّةٍ عسكريّة هناك.
عاد أبي راضياً رغم الغصّة العالقة في مبلعه فقد شعر أنّه أدّى واجبه نحو ابنته كأبٍ عطوف وأنّه بهذه الزيارة قد حمل لها جرعةً من الحنان الذي فقدته مع رحيل أمّها وارتاح لفكرة ذهابها مع زوجها إلى لبنان معلّلاً نفسه بأمل أن يخبو دخان سيرتها شيئاً فشيئاً إلى أن تنساها الناس مع ابتعادها عن العيون.
مسحت نورة وجهها بمنديلٍ رطب غمسته في طاسة الحنان التي جلبها لها أبوها ونظرت في المرآة، تذكّرت سالم الذي كان يتغزّل بعينيها وورد خدّيها وتساءلت ما سيقول فيها اليوم لو رأى شحوب وجهها وذبولها؟ هل سيصدّق الأقاويل عنها فيظنّ أنّ أحداً استطاع أن يأخذ مكانه في قلبها؟
فكّرت بسعد الذي غاب عن الحيّ ولم يلمحه أحدٌ بعد ذلك اليوم، وهرشت ذاكرتها جيّداً لتخبرها إن كانت قد أخطأت في أيّ تصرّف معه حتّى ظنّ أنّها تفتح له الباب ليدخل حياتها بهذه الطريقة الخسيسة. هي تعرف نفسها جيداً وتعرف ماذا تحبّ وماذا تكره، رغم وسامته وأناقته وإلحاحه سعد، إلّا أنّه لم يبعث في أعماقها أيّة ومضةٍ ولم يغيّر في وتيرة نبض قلبها أيّ حركة، فقد كانت تشعر أنّ إلحاحه مجرد شهوة جسديّة خالية من أيّ إحساس وقد كرهت انتهازيّته وتأكّدت من انعدام أخلاقه حين أوقع أخته بهذا الإحراج أمام زوجها ومع جيرانها وانسلّ هارباً كفأر.
بدأت بتحضير طعام الغداء قبل مجيء هايل الذي تعكّر مزاجه وصار دائم التوتّر والعصبية، ولم تعد تعرف من أيّ

الأبواب ستدخل لتخفّف من عتمة الغيمة السوداء التي هيمنت على البيت وأيّ نافذةٍ تفتح وهي منهكة القوى عطّلت الكآبة تفكيرها. فنافذة الشكوى سيدخل منها غبار اللوم والتأنيب ونافذة الحبّ والغيرة لا تجدي فهي تعرف أنّه مُسدِلٌ عليها ستارة كتيمة مُذ عرفته، وإنّ فتحت نافذة تصرّفه الأحمق الذي فقع في الحيّ لغماً وصل صداه إلى القرية فإنّها بذلك تكون قد فتحت باباً على الجحيم، فصار الصمت حليفهم إلّا في أمور البيت الضروريّة جدّاً.

.....

حين سمعت فيزة اسم حسّان ابنها الأوسط أَحسَّت برعشة فرح. حسّان الذي يعيش وحيداً في الشام يشتغل أعمالاً حرَّة، ذهب إلى بيت أبيه على نية الصلح مع أخوته بعد انقطاعه عنهم فترة من الزمن ، وطلب منهم أن يمهّدوا أمر المصالحة مع أمّهم وزوجها. بعث لها أنّه سيزورها في وضح النهار ويراضيها أسوةً بإخوته وأنّه غير مكترثٍ لكلام الناس وخاصةً أعمامه وأُبنائهم فهو حرٌّ في تصرّفاته ولا سلطة عليه من أحد.
شعرت أنّ الطريق لعودة أولادها الخمسة إلى أحضانها تتمهّد والمدّة باتت قصيرة، فردّت أنّها تنتظره بفارغ الصبر والشوق.
في اليوم التالي طلبت من زوجها أن يذبح لها دجاجتين قبل الذهاب إلى عمله ثم قامت بتنظيفهما وطبخهما ويداها ترتعشان فرحاً كانت تطبخ بيديها أكلة المنسف بينما ذاكرتها تستحضر لها صور الماضي تتذكّر معالمه تتخيّل كيف

ستكون قد أصبحت بعد أن صار شاباً في بداية العشرينيات، قد توقّعت في الماضي أنّه سيكون مربوع القامة أشقر الشعر بشرته فاتحة اللون وعيناه خضراوان كعينيها، لكنّ نظرتهما كانت حادّة تنمّ عن رجولةٍ مبكّرة جدّاً فقد تركته و لم يتجاوز العشر سنوات بعد، تذكّرت نبرة صوته المستفزّة مع ألفاظه الوقحة حين كان يشتمّ في البيت رائحة رجلٍ غريب عند عودته من المدرسة فيلمّح لها بطريقةٍ جريئة دون خجل، إلّا أنّها كانت تنهره وتنكر ذلك إلى أن غلبتها نزوتها و ساقتها رغباتها بعيداً عنهم. وتساءلت هل سيعاتبها الآن؟ وما الأحاديث التي ستدور بينها وبينه؟ هل سيخبرها عن أيّام اليتم والعذاب أم أنّه سيكتفي بحضنها مثلما ستفعل هي؟ كانت تستعجل الوقت حتّى يقترب موعد قدومه مع إخوته وعودة زوجها من العمل ليتناولوا معاً طعام الغداء مطمئنّة البال.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

مازالت ثياب الحداد تلتفّ على جسد نورة الذي صار هزيلاً والكآبة الصفراء تقيم في صدرها تمشي في جوانب البيت بخطواتٍ ثقيلة، تلملم أغراضها التي ستحملها معها إلى لبنان. لا يدخل ضوء الشمس إلى بيتها إلّا حين تفتح الباب ليدخل إليه هايل أو عامر ثم تغلق الباب مسرعةً قبل أن يلمحها أحدٌ من سكان الحيّ، سئم عامر من توسّلاته إليها كي تقبل أن ترافقه مع أولادها إلى فسحةٍ في شوارع الشام، إلى الجامع الأموي حيث كان حاتم وإيلين يسعدان برشّ حبّات القمح للحمائم الممتنّةً فيضحكان ملءَ ثغريهما ويركضان في ساحة الجامع، وتضحك نورة وعامر لضحكهما ومن ثم يسيرون في

شوارع سوق الحميدية مسرعين الخطى إلى مطعم بكداش حيث صحون الكشكيّة والبوظة، بعدها يعودون سعداء يقطعون الطرقات المكتظّة بالأمان والفرح يدخلون البيت تاركين خارجاً كلّ الهموم ويكملان سهرتهما على بساط المرح.
ذلك كلّه لم يعُد هذه الأيّام يعني لنورة شيئاً، فيكتفي عامر بمؤانستها و التخفيف من وحدتها بالمبيت عندها.
وقبل أن يغادر إلى عمله في الصباح طلبت منه أن يحضر لها من المحل في نهاية الشارع صحناً من مسبّحة الحمص وعدداً من أقراص الفلافل طعام الفطور لها ولولديها. وضعت إبريق الشاي على النار وبدأت بتحضير الفطور، ارتبكت حين قرع الجرس فقد صار الأمر نادر الحدوث. اقتربت ثم مدَّت يدها لتفتح توقّعت أن يكون بائعاً جوالاً أو إحدى جاراتها قدمت تحاول فكّ قطيعتها معهنّ، حين انفتح الباب كان ينتظر ببدلة الجينز ذات اللون الأزرق الفاتح وقميصه الأبيض وحذائه الجلديّ بلونٍ عسليّ، نظرت إلى وجهه بعيونها الذابلة لترى بشرته السمراء تلمع وعينيه السوداوين ما زالتا تخبّئان خلف نظراتهما التي تمزج بين الابتسام والحزن معاجم من اللغات وقواميس مفردات تحتاج دهراً للبوح بها، يصعب نطقها في لحظات لقائهما القصيرة، رمى التحيّة بصوته الهادئ ومدَّ يده مصافحاً.
إنّه سالم.

"""""""""""""""""""""""""""""""

حين غطَّت القرية بسكّانها في نومٍ عميق كان حسّان مازال يتقلّب في فراشه متظاهراً النوم، وقبل طلوع الفجر وقف في فراشه اقترب من الباب بهدوءٍ وحذر، فتحه وانسلّ خارجاً. شعر أحد إخوته بحركته لكنّ النوم غلبه وظنَّ أنّ أخاه خرج يقضي حاجةً في الخارج ويعود.

مشى حسّان تحت جنح الظلام كانت أنوار الشوارع مطفأة ولا صوتٌ لمخلوق، تلفح وجهه وصدره رياح الخريف الباردة بيدَ أنّ خطاه المسرعة والنيران المتّقدة في صدره جعلت منها هبوباً حارّاً، كان يكلم نفسه مؤكداً لها صواب ماهو مقبلٌ عليه وأنّ على أمّه أن تدفع ثمن فعلتها وأن تكون روحها فداءً لسمعتهم هذا أقل تقدير،وعد نفسه بأيّامٍ قادمة ، مليئةٍ بأحداثٍ كثيرة. ستكون صعبة في البداية لكن بعد ذلك سيحصد العزّ بعد الذلّ وسيشفي نار غليله وإخوته بعد القهر والحرمان.

وصل بدايةً إلى بيت عمّه الذي خبّأ عنده أحلاماً ورديّة بزوجةٍ جميلة وأسرةٍ سعيدة يخبره بأنّ موعد الوفاء بالوعد قد اقترب، طرق الباب طرقاً خفيفاً فوجد عمّه ساهراً في الظلام ينتظر قدوم الصباح ليسمع الأخبار التي تزيح غيمة العار.

تابع حسّان المسير مسرعاً إلى بيت يوسف الذي كان ينتظره في مضافته مجهّزاً له السلاح الذي خبّأه عنده عدنان، ناوله إيّاه فور وصوله وحقن في أوردته جرعةً عاليةً من المديح والثناء على رجولته وشجاعته وأخبره أنّه يرى فيه الرجل الحُرّ الذي لا ينام على الخزي والعار، فصعد إلى رأس حسّان دمه الذي اشتّد غليانه حتّى صار داكناً جدّاً وعاد مسرعاً يحمل بندقيته والفجر الرماديُ بدأ يرفع ستائرالليل ببطء وهدوء عن القرية النائمة .

خطوات حسّان لم تترك أثراً على الطريق فقد صار خفيفا قبل تنفيذ العملية فكيف سيكون بعدها وقد نضى عن كاهله ثوباً ثقيلاً؟

كان شديد الحماس لهذه المهمّة فلم يقبل أن يجرّب جولةً جديدة مع إخوته الأصغر، وحين لم يعُد أمامهم إلّا طريقةً واحدة لفتح نافورة الدم الذي يغسل الشرف وهي إمّا أن تُفتح بيد عدنان أو بيده هو، وتكفّل يوسف بأنّه سيجد المحامي الماهر الذي يُخرج الفاعل من السجن بأقصر وقتٍ ممكن ،ولضرورة الإسراع في تنفيذ الأمر قبل أنّ يتّخذ إخوته أيّ تصرّف بعد أن هدّدوا عدنان بإبلاغ أمّهم وزوجها بالأمر، تعهّد حسّان بتحمّل الوزر وحده فيكفي أخاه عدنان ما تحمَّله طوال السنين الفائتة.

كان يعرف أنّ المهمّة صعبةٌ جدّاً لكنّ طعم ثمارها سيكون حلواً، فبعد أن يخرج من السجن سيمشي في شوارع القرية مرفوع الرأس وقد بدَّل ثياب العار الممزّقة بثوبٍ لامعٍ وجديد، وسيتزوّج ابنة عمّه التي وعده بها أبوها بعد أن يغسل عاره.

وحين وصل فناء الدار التي تناول فيها طعام الغداء منذ ساعاتٍ قليلة عادت له رائحة أمّه ورنَّ في أذنيه صوتها ترحِّب به، تحسّس بيده المرتجفة وجهه ليجد آثار قبلاتها مازالت عالقةً على وجنتيه وجبينه إلّا أنّه أعاد يده إلى الزناد فوراً حين تذكّر كلمات يوسف ووعود عمّه بالعروس، اقترب من الشبّاك الذي ينامان قبالته أمّه وزوجها، دفع بندقيّته برغبةٍ جامحة لخلع الثوب الذي يرهقه، كسر البّلور وبدأ بالضغط على الزناد، صارت طلقات البندقيّة تتناثر في أرجاء الغرفة،

وقف الزوج من فراشه مسرعاً ليتناول السلاح المعلّق على الجدار لكن الطلقات الكثيفة اخترقت ظهره وسقط أرضاً. بقي على حسّان أن يجهز على أمّه التي جلست في فراشها بقميص النوم مذهولةً، نظرت إليه نظرتها الأخيرة وقبل أن تكمل لفظ اسمه كانت طلقةٌ قد اخترقت صدرها، نظر إليها وهي تسبح بدمها وانطلق هارباً إلى بيت عمّه يختبئ عنده ريثما يبلغ قسم الشرطة في القرية المجاورة ليستلموه آمنا على أنّه قام بجريمة شرف.

.....

المفاجأة كادت أن تفقد نورة قدرتها على النطق، بعد لحظاتٍ قصيرة من الحيرة والارتباك نطق قلبها موافقاً على استقبال الزائر الذي يسكن قريباً جداً منه بين الضلوع، وبعث لاستقباله دفقةً من الدم إلى الأعلى فاحمرّت له وجنتاها وتحرَّكت شفتاها لردّ التحيّة، ومدَّت يدها الباردة، شعرت بحرارة يده المشتعلة بالحبّ والشوق لكنّها سحبت يدها مسرعةً قبل أن تنتقل النار إليها، نظرت في عينيه فاجتاحتها رغبةٌ شديدة لبكاءٍ يجهش بأصوات الشوق والشكوى، أرادت أن تلقي رأسها على كتفه وتبلّل سترته بدموعٍ غزيرة، ثمّ أفاقت من إغماءتها القصيرة ودعته للدخول، أومأت له نحو الصالون فدخل وجلس على حافة الكنبة جلسةً مواربة تعلن عن زيارةٍ سريعة، وقفت قبالته بعينين باهتتين ذابلتي الأجفان وجسدٍ هزيلٍ كشتلةِ سجّادٍ في شّباك أمّه عرّتها رياح الخريف من أوراقها وظلّت أغصاناً ذاوية.

فاضت الدموع من عينيهما معاً حين قدَّم لها التعزية بأمّها مستذكراً طيبتها وقلّة حيلتها أمام عمّه الذي حكم عليهما بالفراق. ثمّ أخبرها أنّه قدم من لبنان حين وصلته أخبارها وساقه إليها الشوق، أتى ليعلمها بأنّه يعرف جيّداً من تكون نورة وإنّ قلبه الذي سكنت فيه ومازالت، يوقن تماماً أنّها لا تخبّئ بداخلها إلّا أطياف نقاءٍ ناصعة، وإنّه يأمل أنّ ما يمرّ عليها من زوابع وغبار لن يزيدها إلّا ثباتاً، وهو واثقٌ من أنّ الركن الذي احتجزه في قلبها باكراً وقبل الجميع مازال يمتلئ به رغم البعد، وإنّ نواحَ نبضه الذي يشجو حرمانه منها ، كان يصلها عبر المسافات.

لم تكن نورة تجيبه بصوتها، كانت عيناها وإيماءاتِ وجهها تردّ عليه بالإيجاب. ظلّت صامتةً إلى أن أخبرها أنّه جاء يودّعها ويتابع معاملة سفره إلى ليبيا ويدعو لها بالسكينة والاستقرار مع زوجها وأولادها. ردَّت عليه بصوتها الناعم ونبرتها الحزينة بدعاءٍ مماثل. فخرج حاملاً على كتفيه وفي أعماقه أحمال قهرٍ جديدة كان يظنّ أنّه سيرميها عن كاهله حين يعبر الحدود إلّا أنّها ظلّت تعتصر روحه في الغربة أمداً طويلاً.

أغلقت نورة الباب خلفه وحين التفتت إلى الخلف ألقت بجسدها المنهك على الباب وتساءلت أين ذهبت رغبتها في معانقته وبثّ أشواقها إليه حين رأته؟ فتحت عينيها ومشت إلى الداخل تتعثّر بأكوامٍ جديدة من الحزن والحرمان، وراحت تتطاير في وجهها أوراق دفترها الزهريّ الذي مزّقه خوفها قبل دخولها إلى قفص هايل، واحتارت الآن كيف تلملمها وتخفيها عن الأنظار قبل عودته.

حين كبَّلت الشرطة يدي حسّان صعد إلى سيّارتها دون مقاومة كان ينتظر جملةً واحدة يهمس بها عمّه إليه يخبره أنّ عروسه بانتظاره وعليه أن يكون قويّاً وصبوراً، لكنّ عمّه لم يفعل.

انتشر الخبر بسرعة الضوء في القرية في حين كانت الشمس لا تزال تحاول أن تخترق النوافذ لتفتح عيون الذين يغطّون في نوم عميق لم يعلموا بعد بهول ما حدث، وتبعث بعضاً من الدفء في قلوب أولئك القلائل الذين أصابتهم رعشة استياءٍ صاعقة كادت تتجمّد معها أوصالهم حين اشتمّوا رائحة دمِ أُمٍّ يراق على الأرض بيد ابنها الذي أعطى لنفسه الحقّ في أن يعبث بالدمِّ الذي يسيل في شراييه والجسد الذي اقتُطع جسده منه.

وقف أهل القرية جميعاً على الحياد، أغلبهم عاد للنوم مرتاح البال مطمئنّاً على الشرف المحفوظ في علب الدم، منهم من اكتفى بمطّ شفتيه ممتعضاً على قتل رجلٍ لا ذنب له وثكل عجوزين بوحيدهما وتيتيم طفلتين بريئتين، وقد غرّرت به امرأةٌ عاهرة استحقّت القتل.

واجتمعت عائلتا القتيلين في مضافة أهل يوسف التي كانت تعتبر الأقدم بين مضافات القرية والأكثر عراقةً في مضافات العائلة والتي وصلت بالوراثة إلى يوسف كبير إخوته الرجل المتعلّم وصاحب النفوذ في القرية من خلال الحزب الذي ينتمي إليه، وأجمع رجالات العائلتين على أنّ تحمل الجثتان على شاحنة (تراكتور) كما تحمل البهائم النافقة وترمى في البراري طعاماً للوحوش والغربان.

.....

وظَّبت نورة حقائبها ولم تحمل معها إلّا ثيابها السود التي غطّت قلبها قبل جسدها في منتصف فصل الشتاء الماضي وما زالت. وكانت حزينةً أنّها ستبتعد عن عامر، وقد كان قربها من أهلها وسهولة زيارتهم أمراً حلمت به مذ ابتعدت إلى حلب وهي عروس، ثمّ ما لبث أن انتفض قلبها حين تذكّرت أنّ بيت أبيها الذي كانت تظلّ في توقٍ وشوقٍ دائمين إليه لم يعد كما كان، فتسرع في لملمة ثيابها وملء الحقيبة لتطيل غيبتها قدر المستطاع، ستتغلّب على شوقها لإخوتها ذلك أسهل من دخول بيت أمّها بوجود امرأةٍ أخرى مكانها.
ذهبت نورة إلى لبنان دون أن تودّعنا، ودّعت عامر فقط وودّعت جاراتها القريبات، ودّعت المخيّم بكل ما أمضت فيه من معاناةٍ وهناء وانطلقت.

.....

في السجن نسيَ حسّان الحلم بزوجةٍ وأسرةٍ سعيدة.
أيّامُه الطويلة كانت مزدحمة الصوَر والذكريات أولها صورة أمّه التي لمحها لمحةً سريعةً بعد شوقٍ طويل وما لبث أن مزّقها، فظلّت نظرتها المتوسّلة وهي في فراشها قبل أن يطلق عليها النار تحرق أجفانه وتحرمه النوم، وخيال الرجل الذي أدخله بيته فأكل من طعامه ثمّ غدر به يقابله في كل زاوية من زوايا السجن .

لقد حكم على أختيه البريئتين بأيّام الوحشة واليتم التي أسقمت روحه وأبكتها بكاءً مريراً مذ كان طفلاً حتّى اليوم، علامات الفرح والمحبّة التي ظهرت على وجهي الطفلتين عند استقباله، واحتفائهما به جعلته يتلمس رابطة الدم العصية على التبدُّل والتغيير،صارت نغمة صوت أخته الصغرى حين نادت أمّها ومن ثم لفظت اسمه بلثغةٍ طفولية محببة تحدث طنيناً ملازماً في رأسه وأذنيه. فباتت هاجسه المؤلم ،وأصبح منظر الدم الذي يسيل في العروق يهيمن على بصره .
الندم الذي لازمه كان أكثر سواداً من عتمة السجن و ساعاته أطول بكثير من أيّامه السئيمة، عاف الطعام والشراب فنحل جسده وكأنّه صار هرماً، حنّ إلى أيّام طفولته القاسية واشتاق للجوع الذي فارقه منذ أوّل وجبة طعامٍ قدّمت له في هذا المكان البارد، حنّ كثيراً لتلك الليالي التي كان يعود فيها إلى غرفته في الشام وقد أنهكه التعب بعد يوم عملٍ طويلٍ ، ليأكل لقمته ثمّ ينام نوماً عميقاً.
سنوات سجنه لم تكن طويلة بعددها حيث لم يدّع
عليه أحد فوالدا القتيل عجوزان يستعجلان الموت
وأقاربه مع أقارب القتيلة صاروا أئمّةً يحلّلون
ويحرّمون غاضّين النظرعن غرائزهم المكبوتة في
أقفاص أجسادهم تتمنّى التحرّر في كلّ لحظة ،
فاتفقوا وأعلنوا فيما بينهم أنّ هاتين النفسين خائنتان
تستحقّان موتاً رخيصاً.
لكنّ تلك السنوات التي حكمها عليه الحقّ العام
كانت بالنسبة إليه دهوراً .

.

أنهى محكوميّته وخرج يمشى وحيداً ، نام في حدائق الجوامع إلى أن وجد عملاً وبيتاً يأويه .

.....

انطلقت السيّارة العسكريّة التي تقلّ الضابط هايل وأسرته إلى لبنان، وكانت القيادة قد أمّنت له بيتاً مستقلّاً بجانب الثكنة.
كانت نورة مغمضة العينين طوال الطريق تحمل حاتم الذي أغفى في حضنها منذ أن دارت عجلات السيارة وهايل يجلس بجانب السائق يضع إيلين على ركبتيه، اتّجهت السيّارة غرباً وصارت تجتاز الطريق العميق بتاريخه والمرتفع بتضاريسه، المتعرّج بين الجبال المكسوّة أشجاراً وصخوراً تنبئ عن دهورٍ من التقلّبات المناخيّة للمنطقة، وصار هايل يلتفت للخلف بين الفينة والأخرى عسى أن يرى الدهشة في عيني زوجته، إلّا أنّه يجدها مغمضة الجفون تسرح في عالمٍ آخر. كانت شاردة الذهن تفكّر بالجزء الذي تركته من قلبها هناك في القرية عند أخوتها، الذين ما برحت حياتهم تزداد شقاءً وحرماناً، فبعد أن جثم شبح اليتم على صدورهم ستدخل حياتهم الآن امرأةٌ غريبة لا يعلم إلّا الله ما تخبّئ لهم في صدرها من نوايا. وبدلاً من أن تمسح هي عن وجوههم غبار الهمّ واليتم بيدٍ حانية فقد لطّختها بوحل سيرتها التي ستزيدهم ذلاً وقهراً، تركتهم يتخبّطون في مستنقعٍ عَكِرٍ ومضت إلى حياةٍ جديدة وبلادٍ بعيدة.

كانت تفتح عينيها حين يكلّمها هايل لترى ما حولها من جمال الطريق فتجيبه بإيماءةٍ من رأسها وحين تلتفت لا ترى إلّا الظلام المطبق وكأنّها مسافرةٌ في عتمة الليل.
دخلت إلى البيت المخصّص لهم، شقّة صغيرة في نقطةٍ عسكريّة بعيدة عن الأماكن السكنيّة، يتضّح من خلال كسائها القديم المتّسخ كم تعاقب على سكناها من عائلات مختلفة بطريقة حياتها ، وقفت على الشبّاك ونظرت في البعيد فلم ترَ إلّا الثكنة العسكريّة بما فيها من غرفٍ منفردة في البريّة وبعض خيامٍ صغيرة وغرفتين يبدو من طريقة بنائهما والحديقة الصغيرة أمامهما أنّهما تشكّلان مكتب الضبّاط المسؤولين عن الثكنة والتي ستكون مقرّاً لزوجها وزملائه، ولم ترَ على مدِّ نظرها إلّا العساكر ببدلاتهم العسكريّة و لم تسمع إلّا أصواتهم المرتفعة يكلّمون وينادون بعضهم البعض في هذا الخلاء الذي يُرجع الصدى.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

بقتل فيزة وزوجها انتهى يوسف وعدنان من المهمّة الصعبة في غسل ثوب العائلة الملطّخ ولم يبقَ إلّا الطرف الذي كُتب عليه اسم هايل والذي لوّثته زوجته نورة وصار التخلّص منها ضرورةً ملحّة ليعود طاهراً في نظرهم ونظر أم يوسف التي أطلقت زغرودةً تلعلع حين عرفت أنّ حسّان نفّذ المهمّة الموكلة إليه بنجاح. صارت مهمّة يوسف وعدنان هي تقصّي أسماء العساكر الذين بإمكانهم إيصال الرسائل إلى هايل عند ذهابهم إلى لبنان، استلم يوسف مسؤوليّة الكتابة بخطّه المنمّق

وأسلوبه المُلحّ وصارت رسائله إلى هايل تتوالى كزخّات المطر في شهر شباط الذي لفّت غيومه السود بيت نورة، فلا تنقطع الرسائل مدّة يومين حتّى تعود بغزارةٍ أشدّ وزخمٍ أقوى. كان يؤكّد في رسائله أنّه مستاءٌ من تصرّف أخيه باصطحاب زوجته الخائنة معه إلى لبنان ما يعلن احتفاظه بها وعدم النيّة في الانفصال عنها انتقاماً لشرفه، يخبره أنّ سيرتهما تنبعث في القرية من كلّ بيت كانبعاث دخان المواقد في يومٍ قارس ويخبره في كلّ رسالةٍ أنّ أهل القرية نسوا الآن قصة فيزة ولا يذكرون إلّا فعلة زوجته المعيبة، كان هايل يقرأ الرسائل على مسمع زوجته فيتكدّر مزاجهما ويسوَدّ وجهيهما، يرميها من يده في أماكن بمتناول يدها كأنّه يريد منها إعادة قراءتها، ودون أن يعقّب عليها بأيّ كلمةٍ يذهب إلى عمله ويغيب عن بيته طول النهار.

تقرأ نورة الرسائل عدّة مرّاتٍ في اليوم وتتمعّن كلّ حرفٍ فيها عسى أن تكون واهمةً بأيّ كلمة لكنّها في كلّ مرّةٍ تتأكّد من ورود ما فيها من ذمٍّ لأخلاقها ويتّضح بكلّ علانيّةٍ تحريضُ هايل على طلاقها، فتشتدّ الظلمة من حولها أكثرتسمع أصوات طفليها دون أن تنظر في وجهيهما تقوم على إطعامهما ونظافتهما بدافع الواجب، وحين تلمس جسديهما أو تضع اللقمة في فم أحدهما تتخيّل أنّها ستعيش باقي عمرها بعيدةً عنهما، فلا بدّ أن تأتي هذه الرسائل بغايتها يوماً ما، عندها سترجع إلى بيت أبيها محنيّة الرأس ملطّخة السمعة هي وأخواتها وابنتها. وستعود إليها في كلّ لحظةٍ نظرة أبيها التي توعز بالخوف والخجل، ستضطر للعيش مع أخوتها منبوذةً من المجتمع ذليلةً، لن تتمكّن من أن تأخذ

طفليها معها فبيت والدها بالكاد يتّسع له ولأسرته والطعام فيه بالكاد يفي حاجة أفواه سكّانه وهي أصلاً ستفقد جرأتها وحقها بالمطالبة بهما . وحين يصطدم رأسها بجدار تخيّلاتها كانت تجهش في البكاء بصمتٍ إلى أن تتقرّح أجفانها وتتمنّى لو أنّ الموت تمكّن منها أكثر يوم حاولت الانتحار في المخيّم .
حين يعود هايل ويلاحظ التعاسة المطبقة عليها وعلى طفليه يرقّ قلبه عليهم يحاول أن يخرجهم من عتمة البيت فيأخذهم إلى أسواق شتورة، وفي السيّارة حين يدخل الهواء البارد من الشباك تشعر ببرودة تخفّف من حرارة وجنتيها وتقَرُّح عينيها ويتسلّل إلى أعماقها خيط أملٍ رفيع تتمسّك به تحاول أن تعلّقه على شغاف قلبها قبل أن يفلت منها فترى أنّ ما يحدث مجرد سحابةٍ سوداء ستنقشع قريباً، تعلّق نظرها على الطريق المحفوف بالمخاطروالجمال معاً.
طرقٌ كثيرة المنعطفات والمنحدرات، السيّارة تعلو وتهبط مع الطريق كأنّها في أرجوحة، وأشجار الأرز تنتصب أمام البيوت كحرّاسٍ أشدّاء تصدّ عنها رياح شباط بقامتها العالية وأذرعها المفتوحة، المحال التجارية الكبيرة والصغيرة تغوي زائريها بتنوّع وجمال معروضاتها والأضواء المبهرجة تزيح عتمة المساء المبكّر فتُنسي المارّين أنّ الفصل شتاء.
تتجوّل نورة في السوق مع زوجها وأولادها وأكثر ما يلفت نظرها ألبسة الأطفال والمعروضات المنزليّة، فتشتري لطفليها ملابس شتويّة أنيقة وجديدة وكلّ ما يفتنها من تحفٍ وأدوات مطبخ مميّزة متعلّقةً بتيار الأمل الخفيف الذي يدفعه في أعماقها عشقها للجمال والأناقة، ومن ثم تعود إلى البيت فتجد رسائل جديدةً أو قديمةً تعيدها إلى دهليزها المعتم،

فتترك مشترياتها جانباً وتعود إلى خيالاتها التي ازدادت قتامةً مع الرسالة الأخيرة التي يهوّل فيها يوسف الأمور كثيراً ويحذّر أخيه من التفكير في العودة إلى القرية قبل أنّ يتصرّف التصرّف الذي يكفّ عنهم ألّسنة الناس، ولا يترك رسالةً إلّا ويعود ليذكّره بعملة فيزة أكثر من مرّةٍ ويجدّد إخباره عن أولادها وتصرّفهم الشجاع وأخيراً أتى على ذكر والد نورة ليقول أنّه بات يتوارى عن الأنظار خجلاً من الناس.
هذا الكلام أودى بنورة إلى الغرق في وحل كآبتها وصارت تشدُّها الأوحال إلى القاع أكثر حين تتخيّل نظرة أبيها التي تحوّلت بسببها إلى نظرة ذلٍّ وانكسار. أحسَّت بهول أن ترفع نظرها إليه بعد اليوم، فكّرت بأخواتها وظنَّت أنّ وصمة عارٍ طُبعت على جبين كلّ واحدةٍ منهنّ، بإخوتها الذكور وتخيّلت أنّها جعلتهم يسيرون بين الناس خَجلين.
نورة الصبيّة التي لم تكمل الثلاثة وعشرين عاماً بعد ، قلبها مازال قلب طفلٍ يخاف من الصوت العالي ومن نظرةٍ حادّة،
نورة الأمّ الصغيرة تختلج بداخلها عاطفة الأمومة فترتعد أوصالها من مجرّد فكرة أن يبتعد أطفالها عنها، تتجمّد أصابعها وتمّحي خطوط كفيها قبل أن تترك على جبين أيٍّ منهم بصمةً سوداء.
نورة الأخت الكبيرة لخمس طفلاتٍ يتيمات تذوب وتختفي كقطعة شمعٍ في نارٍ لاهبة إن رأتهنّ صبايا مرفوضاتٍ من المجتمع.
نورة الأخت الحبيبة لإخوانها الأربعة تحفر قبرها وتتمدّد فيه وتُهيل على نفسها التراب حيّةً إن طأطأ أحدهم رأسه ذلاً.

نورة البنت البارّة بأهلها تموت ألف مرّة قبل أن تجلب لأبيها الشتيمة.
نورة التي مازالت روح أمّها ترفرف حولها مشتاقةً لها ولضمّها بين ذراعيها وتقبيل عينيها الدامعتين ومسح وجهها الشاحب الكئيب نادتها اليوم كثيراً ووعدتها بسماءٍ صافية وبمأوىً آمنٍ، بعيداً عن سعد الذي لم يزده جمالها إلّا دناءةً وخسّة، عن هايل الذي اغتصبها قبل أن يلمسها، وعن عدنان الذي يريد أن يغسل وجهه بماء وجهها، عن أمّ يوسف وأولادها ذوي الدمِ الأزرق وأخيراً عن نظرة أبيها التي تغرقها بخوف وخجل شديدين.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

كادت نورة أن تقطع إصبعها دون أن تشعر بالألم أثناء تقطيعها حبّات البطاطا لتطبخ طعام الغداء لزوجها وأطفالها. وظلّت تقلّب قطع البطاطا الصغيرة في الطنجرة على نارٍ هادئةً وقتاً طويلاً حتّى انهرست وكادت أن تصبح كقطعةً العجين لولا دخول هايل جائعاً يسأل عن الغداء فأعادها إلى مكانها في المطبخ خلف البوتوغاز تحرّك طبختها وطفليها يلعبان من حولها، كانت أفكارها تؤرجحها وهي مغمضة العينين ترفعها عالياً تعانق أمّها في السماء تشتمّ رائحتها فتجنّ شوقاً واحتياجاً إليها، ثم تهبط بها لتمرّغها في الوحل فتكاد تتقيّأ من رائحته الخانقة رطوبةً ونَتَن.
بدّل هايل ملابسه وسكبت نورة لهم الطعام، امتعض من طبختها التي لا طعم لها لكنّها ظلّت شاردةً دونما جواب تقطّع الخبز تغمّسه وتضعه في حلق طفليها دون أن تنتبه لمن فيهما

دور اللقمة، لم تضع في حلقها لقمةً واحدة كذبت على زوجها حين أخبرته أنّها تناولت فطورها متأخّرة وأنّها ستأكل حين تشعر بالجوع.
لم يعرف هايل يومها أنّها ليست جائعة للطعام بل هي جائعة لكلمةٍ طيّبة، لنظرة محبّة، للمسة حنانٍ على جبينها الأصفر تخفّف عنها ثقل الهواء وتدفّئ قلبها الذي جمّده صقيع مشاعره وابتعاد روحه عن روحها رغم وجود جسديهما في مكان ضيّق.
وقبل أن يخلد للنوم بعد الغداء وتنتهي هي من عملها في المطبخ كان جرس الباب يُقرع، فتح الباب وغادر مع أحد العساكر الذي أتى يستدعيه لخلافٍ حاصلٍ بينهم، خرجت هي من المطبخ فوجدت طفليها يلهوان بألعابهما و هوأغلق الباب خلفه وذهب. دخلت غرفة النوم ،سمعت صوت أمّها يناديها بقوّة وتذكّرت رائحتها التي تشتاق.
أغلقت الباب على نفسها الذي يفصلها عن طفليها،مدّت يدها اليسرى، أمسكت بيد أمّها وأغمضت عينيها، أحسّت بحنانها و بأنّها طفلتها التي وُلدت للتوّ لم ترَ بعدُ نظرة أبيها ولم تكبر بين أخوتها وأخواتها ولم تلعب معهم لعبة السطور المنقّطة وتسكير المربعات فتدخل في متاهةٍ بين النقاط لا تعرف الخروج منها، لم تلتقِ سالم ويعطيها مكانه في الحافلة ويبعث لها خصلة حبقٍ طيّ الرسالة، لم تمزّق الرسائل والدفتر الزهريّ وتذرُ الحبق اليابس في الهواء، لم تتعرّف إلى هايل وتقف بجانبه ستُّ سنينٍ وكأنّه تمثالٌ حجريٌّ باهتٌ خشن الملمس، لم يطاردها سعد يريد أن ينزع عنها ثيابها ليرضي مآربه الذكوريّة وتهرب منه فتصطدم بعدنان الذي يبحث عن

قامة امرأة يعرّيها ليلفت إليها الأنظار ويلوذ خلفها بقصة أمّه، لم تسقط في براثن يوسف الذي يحلم بالوقوف على تلّة الشرف حتّى ولو صعد يدوس على جثث الأمّهات والأطفال.
الرائحة المنبعثة من يد أمّها أزالت من ذاكرتها رائحة العفن المنبعثة من بين شفاه أمّ يوسف وابنتها، نسيت تماماً أنّها كبُرت وصارت أمّاً لطفلين هما الآن خلف الباب يهدمان بيت المكعبات الذي بنته لهما بالأمس ويضحكان مطمأنَّين أنّها ستفتح الباب بعد قليل وتعود لتبنيه لهما من جديد، وفي المساء ستنام إلى جانبهما على السرير تهدهد لهما فيغمضان أجفانهما مستسلمَين للنوم وتقبّل جبين كلٍّ منهما وتغطّيهما بحنانها وخوفها عليهما، نسيت أحلامها بهما شابّاً وصبيّة متعلّمَين ناجحيَن، نسيت العهد الذي قطعته على نفسها يوم سمعت صرخة إيلين الأولى بأنّها ستفعل المستحيل كي لا تبتعد عنها يوماً واحداً حتّى تكبر، والذي كرّرته حين ضمّت حاتم بين ذراعيها. لم تعد تذكر إلّا لمسة يد أمّها ودفء أصابعها ولم تسمع إلّا صوتها يناديها، وأيقنت أنّ العودة إلى أحضانها صار الملاذ الوحيد الآمن لها، وأنّ الموت هو الذي سيريحها من كلّ المشاكل التي تشابكت حولها كشبكة صيدٍ محكمة الإغلاق.
أمسكت المسدّس المرمي على السرير مع بدلة هايل العسكرية وضعت إصبعها على الزناد وضغطت ضغطةً واحدة، صوت الرصاصة هزَّ البيت واخترق الجدران وخرج ليرجّ هواء الثكنة فاهتزَّ به قلب هايل، استغرب الجميع الصوت القريب وتذكّر هايل أنّه ترك مسدّسه في البيت خطرت له ألف فكرة

بلحظة وسيطر عليه خوفه على الأولاد فراح يركض نحو البيت.

.....

ارتاح عدنان من إلحاح يوسف ولم يعد يلمح وجهه في المخيّم لكنّه لم يشعر أنّه تحرّر من ثوب الخزي والعار يوماً واحداً، بل إنّه لبس معه قبّعةً ثقيلة قُدَّت خيوطها من حجارة تثقل عليه رأسه وتجعله مطأطئاً دوماً، فيما مضى كان ابن العاهرة أمّا اليوم أصبح القاتل ابن العاهرة، وصار يرى غرفته معتمةً كالقبر حتّى أمسكت بخناقه وَحْدَةٌ قاتلة، فقد خسر إخوته الأربعة بعد فعلته المشؤومة إذ لم يعد أحدٌ منهم يزره أو يكلّمه، يتذكّر سعد الذي انقطعت أخباره،و كيف كان يتسلّى بمراقبة تحركّاته ونسج الصور في خيالاته ومشاركتها مع يوسف.

مرَّت عليه الأيّام والسنوات كئيبةً متشابهة، يذهب إلى عمله في الصباح دون أن يكلّم أحداً ويعود في المساء يغلق بابه دون أن يشعر أحدٌ بوجوده، زياراته إلى القرية أصبحت نادرة جدّاً، فقد كره القرية وأهلها بعد أن شعر أنّ الأصابع التي تومئ إليه قد ازداد عددها أكثر، وعزف عن الزواج وقد جاوز الأربعين من العمر لأنّه لا يثق بامرأةٍ على وجه الأرض

بعد سنوات .....

أفاق سكان الحيّ في المخيّم ذات صباح يتساءلون عن الرائحة الكريهة التي تتسرّب إلى أنوفهم، كشفوا على مجاري الصرف الصحيّ لعلّ سدداً حصل فيها ففاضت المياه والرائحة لكن لم يتبين أيّ عطل، وفي اليوم التالي انتشرت الرائحة أكثر حتّى ضاق السكان بها ذرعاً فوضعوا أيديهم على أنوفهم وبحثوا خلف البوّابات وفي النفايات والمراحيض لكن لا شيء غريب، تتبّعوا مصدر الرائحة جيّداً خطوةً خطوة إلى أن أوصلتهم خطواتهم إلى باب غرفة عدنان، طرقوا الباب ولم يفتح، أخيراً تجمّعت الأيدي والأدوات و كُسر الباب، وإذا بالذي يطلّ برأسه إلى الداخل يبتعد فوراً مطبقاً يده على فمه وأنفه يتمتم كلاماً غير مفهوما، علا الضجيج وأطلّ الجيران من النوافذ والأبواب وحضرت سيّارة الإسعاف وقام العاملون فيها بارتداء كمّاماتهم وقفّازاتهم السميكة، لفّوا الجثّة المنتفخة بقدر أربعة أضعاف حجمها الأصليّ وتعاون أهل الحيّ معهم على نقلها إلى السيّارة ومن ثمّ إلى برّاد المشفى، وكتب في التقرير الذي استلمه يوسف مع الجثّة أنّ المتوفّى شابٌّ قارب الخمسين قد أصيب بنوبةٍ قلبيّة بعد أن كان قد خلع كافة ملابسه ليستحمّ، وإنّ الوفاة قد حصلت منذ أربعة أيّامٍ و قيّدت على أنّها قضاءٌ وقدر.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

ضغط هايل على الجرس ولا من مجيب، وضع إصبعه ولم يرفعها لدقائق معدودةً ولم يفتح أحد، خبّط على الباب كثيراً ولم يسمع سوى صوت طفليه من الداخل يبكيان بصوتٍ عالٍ، تبعه العساكر حين ركض خائفاً وحاولوا كسر الباب تركهم هو وذهب إلى الشبّاك كسر الزجاج بيديه، ناداها كثيراً ولم تجب.

أخيراً كُسر الباب، دخل فوجدها جثّةً هامدة ، ضمّها إلى صدره ناداها بأعلى صوته ولم تجب .

''''''''''''''

الرصاصة التي اخترقت قلب نورة قطعت المسافات والحدود واستقرّت في بيتنا بعد أنّ مزّق دويّ انفجارها قلوبنا.

صرخت جدّتي أمّ صالح صرخةً قويّةً في وجه أبي حين أحسّت أنّه سينهار ورمت له حبال الله والصبر الشديد التي تمسّك بها في مصيبته السابقة، لكنّه لم يستطع الإمساك بها هذه المرّة فقلبه الذي كانت تسكنه شهلا وغادرته منذ أقلّ من عام قد انشطر اليوم قطعتين، أخذت نورة القطعة الأكبر وهربت بها بعيداً عن نظرته التي تخاف وتركت له قطعةً هشّةً تنزف نزيفاً حادّاً وصاعقاً كاد أن يغيّبه عن الوعي ويفقده توازنه.

بكيتُ مع إخوتي بصوتٍ عالٍ طرقت رأسي بالجدار كفرت، شتمت المشيئة الإلهيّة التي خطفت منّا أمّنا الثانية وحرمتنا

القلب الذي كان ينبض بنا رغم كلّ التعب، سلبتنا الروح الجميلة التي كانت بحضورها تبعث فينا أطياف حنان من بين ظلال الحزن وتزيح عتمة ليالينا بنورها، كيف استطاعت نورة أن تتخلّى عّنا وقد كانت العيد لأيّامنا المتشابهة والسكّر الذي يخفّف من مرارة عيشنا، ثمّ لمن تركت حاتم وإيلين! وكيف طاوعها قلبها الرهيف أن تبتعد عنهما وتحكم عليهما باليتم أيضاً! إلى أيّ عمقٍ في الهاوية أوصلها يأسها وكآبتها ونحن غير آبهين! كم نادتنا مستغيثةً ولم نسمع! كم كانت الأصابع التي أغمضت لها عينيها عن رؤية طفليها مدبّبةً رؤوسها مؤلمة حتّى تخلَّصت منها بهذه الطريقة الفظيعة! كيف لفَّها الموج وحيدةً ولا أحدٌ على الشاطئ يمدُّ لها يد العون ؟! هل آلمتها نار الرصاص فندمت في لحظةٍ لم يعد ينفع الندم؟ هل فكّرت كثيراً قبل أنّ تقرر الهروب أم أنّها هربت في لحظة انفعالٍ وخوفٍ وخجل؟
كلُّ هذه الأسئلة وأكثر بكثير كانت تتصادم بعضها ببعض داخل رأسي فتغيّبني عن الوعي لحظاتٍ ثم أستفيق على صوت النسوة وبرودة الماء الذي يُرَشّ على وجهي.

"""""""""""""""""""""""""

انطلقت السيارة التي تحمل أبي ومن معه إلى الحدود اللبنانيّة لاستلام الجنازة. في الطريق كان يستمع إلى مواساة وتعازي أقاربه الذين رافقوه وهو واجمٌ دون ردّ مكفهرّ الوجه يحدّق نظره في شبّاك السيّارة ولا يلتفت لأحد، حين استمرّ صمته صَمتَ الجميع من حوله وخيّم السكوت عليهم وصارت

التكهّنات ترتسم في مخيّلة كلّ منهم حسب ظنونه، معظمهم اعتقد أنّه يفكّر بطريقةٍ للانتقام من زوج ابنته، ومنهم من ظنَّ أنّه سيترك العدالة تأخذ مجراها ليُعرف القاتل وينال جزاءه، آخرون انتابتهم الشفقة عليه فقد تمكّنت منه الصدمة حتّى جعلته غير قادرٍ على الكلام، وجعله الخجل من الفضيحة التي ألمّت به وبابنته لا ينظر في وجه أحد، في حين كان أبو عامر مطرقاً شارداً تعود به الذاكرة الى الوراء مايزيد على عشرين عاماً يوم ولادة نورة ( بنت) بعد اثنين من الصبيان تذكر تلك الامتعاضة التي انتابته وقد كتمها في صدره ولم يبُح بها لأحد . منذ تلك اللحظة شعرأن العهد الذي قطعه على نفسه ومع شهلا في حماية شرف الأسرة وسمعتها بدأ يصبح أصعب ويتطلب مزيداً من الحرص . ومع ذلك فهو لم يتوقع أبداً أن يدفع هذا الثمن الباهظ ولم تخامره الشكوك يوما بصحة اسلوبه وطريقة دفاعه ، لكن الألم الفظيع الذي ينتابه الآن وخسارته الفادحة جعلاه يتخبط ولم يعد يستطيع أن يفرق بين الخطأ والصواب.

تذكر نورة الطفلة الجميلة التي كانت تسعى دوماً لإرضائه يجدها بانتظاره حين يدخل عائداًمن عمله ومن ثم تحمل له المنشفة حتى ينتهي من غسل وجهه ويديه كي يشعر بوجودها من حوله ، ثم ما أن كبرت قليلا حتى صارت تخفض صوتها أثناء وجوده في البيت وتضحك بهدوءٍ في حضوره ، تذكر دموعها وخضوعها المستمر له منذ أن وضعت على رأسها الإيشار حتى خرجت من بيته عروساً حزينة .

حبس الدموع المحرمة على الرجال ، نظر إلى معالم الطريق ساهماً لا يرى إلّا وجه نورة وعينيها المنكسرتين اللتين

ودّعهما آخر مرّة في المخيّم حين مسح عنهما الدمع و قبَّل جبينها و أخبرها أنّه يكذّب ما سمعه عنها.
ظنَّ يومها أنّه ترك في حوزتها جرعةً كبيرة من القوّة والثقة تكفيها مدّةً طويلة، وأنّه حمل عن كاهلها أحمالاً ثقيلةً من الأحزان والاكتئاب و تركها في عهدة رجلٍ بما تعنيه له هذه الكلمة، لكنّه الآن يلوم نفسه بقسوةٍ أنّه عاد بدونها، كان عليه أن يتأكّد أنّ هايل لا يعرف من معاني هذه الكلمة إلّا القليل، وأن يستمع لشكوى ابنته من قلّة حيلة زوجها وحكمته، كان عليه ألّا ينسى أم يوسف وأفعالها وأن يعرف أنّ دمها يضخّ في قلوب أولادها اللؤم والقسوة فلا يرمِ لهم ابنته الطفلة بقلبها الغضّ.
و حين وصل الجميع إلى قسم الشرطة الحدوديّ وتمّ استلام الجثة الموجودة في التابوت الذي أعدّته لها القيادة العسكريّة على أنّها زوجة ضابط، استلم أبو عامر الجنازة بكل صبر .

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

جُنّ جنوننا أنا وأخي عامر حين سمعنا أبي يخبر أمّ صالح أنّه قد أسقط حقّه وأخرج هايل من السجن وأنّه لم يدَّعِ على أحد.
كانت نار قلوبنا تتأجّج وأتى والدي يصبُّ عليها الزيت، كنت أريد أن يموتوا جميعاً مقابل عيون نورة التي أُغمضت، ولواستطعت حينها لقتلتهم جميعاً، أوّلهم يوسف الذي سلّط عليها دخان لؤمه ونواياه الخبيثة إلى أن أعمى بصيرتها برسائله التي كانت تتسرّب أخبارها إلينا من أحد العساكر المكلّفين بإيصالها، أمّه وأخته اللتين اعتبرنَها عدوّتهم مذ صارت بينهم.

كنت سأنتقم من هايل رغم ثقتي التامة أنه لا يفعلها.
فكيف لأبي أن يغمض عينيه ويصمّ أذنيه عن الجلجلة التي تعترينا! كيف له أن يسامح بدم ابنته بهذه السهولة وهذه الطريقة! هل كان يصدّق أنّ نورة خائنة تستحقّ الموت؟ نورة التي كانت أرقّ من النسمة تموت بهذه الطريقة، قلبها الذي كان أطيب وأطهر من قلب طفل تولع به نار الرصاص ويذهب دمها هدراً دون حساب؟!
شتمت هايل وأهله، ضربت رأسي بالجدار من جديد، دعوت عليهم بالموت جميعاً صرخت في وجه أبي الذي أخجل النظر فيه ،أخبرته أنّ القاتل الحقيقيّ هو يوسف الذي لم يراعِ جرحها الطريّ وأخذ يغرز فيه سكاكينه الصدئة، فيهدّد بحرق قلبها على طفليها وهدم بيتها حتّى تمكّن منها اليأس والخوف.
نظرت في عينيْ أبي فرأيت حدقتيهما تسبحان في بحرٍ من الدم والدمع المتجمد وجهه ممتقعٌ أصفر وشفتاه يابستان، خرج صوته المترجرج وهو يحاول أن يتشبّث بظلّه بالهواء، بأيّ شيءٍ كي لا يسقط... كي لا يتناثر... يصكّ أسنانه ليكظم الغيظ بداخله ويخبرنا أنّه أسقط حقّه لغايةٍ في نفسه وحكمةٍ في عقله فإنّ موت القاتل لن يعيد النبض إلى قلب نورة الحبيب وإغلاق باب السجن على المجرم وزجّه بعيداً عن أولاده لن يغلق الثقب الذي أحدثه رحيل نورة في قلب أبيها ، و لن يعيدها إلى بيتها وبين أولادها.
نورة رحلت إلى اللاعودة ومحاسبة الفاعلين عن طريق المحاكم لن يجلب لروحها إلّا الضجيج ولن يضيف لذكراها الغالي والجميل في قلوبنا شيئاً بل سيشوهون صورتها العالقة

في الأذهان كلَّما طُلبوا إلى المحاكمة وستظل سيرتها في حلوقهم النتنة فترةً أطول يلوكونها بكلّ ما أوتيت أحناكهم من قذارةٍ ويفسدون عطر ذكراها بنتانة أنفاسهم.
قد أسقط أبي حقّه كي ينتشل روحها من عتمة جحورهم ويسحب سيرتها كقطعة ألماس من أكوام الفحم... سامح البشر بحقّه وسلّم القضية إلى القاضي العادل الذي لا يخفى عليه سرٌّ ولا يحتاج إلى شاهد...

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

بعد عدة شهور وقف أبي بباب مضافته مرحّبا بالضيوف المشايخ وأصحاب الجاه الذين ظلَّ هايل أسبوعاً كاملاً يجوب القرى المحيطة حتّى جمعهم، وكانوا قد أحضروا معهم والده وإخوته وأبناء عمومته المقرّبين ليتقدّموا جميعهم بالشكر والامتنان له على إسقاطه حقّه عن هايل وإخراجه من السجن ومن ثمّ يطلبون منه أن يكمل معروفه الذي غمر به هايل فيمنحه العواض كما جرت العادة حين تموت الزوجة، و تترك لزوجها صلاحيّة طلب العوض عنها في إحدى أخواتها اللواتي ما زلن عازبات، فطلبوا من أبي أن يزوّجه بنتاً أخرى من بناته لتحلّ محل أختها وتكون أمّا جديدةً لأطفالها.
جدَّد أبي الترحيب ثم وجَّه الكلام لمن هو أكبرهم سنّاً وقدراً وسأله،
- يا حضرة الشيخ، إذا كنت تربّي في بيتك عدّة عصافير في قفص، تطعمها بيدك وتأتنس بصوتها ثمّ طلب منك أحدٌ أن يمسك واحدةً منها بين يديه وحين وافقتَ وصارت هي بين

يديه قام بعصرها بين كفّيه إلى أن ماتت، فهل يطاوعك قلبك أن تناوله الأخرى؟
وقف الشيخ في صدر المضافة مقدّماً الاعتذار لصاحبها عن الإحراج، وشكره على حسن ضيافته وسار خارجاً وسار الجميع من خلفه ومعهم هايل ومشى أبي خلفهم عدّة خطواتٍ وقد عاد إليه لون وجهه والرطوبة إلى حلقه اليابس فقد أتت هذه الزيارة بالنسبة إليه كشهادةٍ من المجتمع تثبت براءة ابنته وترفع رايةً بيضاء ناصعة ترفرف فوق داره.

.....

هذه المرّة اختارت أمّ يوسف لابنها هايل عروساً من أقاربها، قَدِمت إلى ابنة أختها تعيد لها حلمها الذي سلبته منها يوم تجاهلتها وخطبت غيرها لهايل بسبب قلّة جمالها.
فابتسمت العروس في وجه خالتها واستلمت منها الحلم الذي أعيد إليها ثقيلاً ملفوفاً بالمسؤوّليات والهموم، فالعريس صار أرملاً حزيناً وفي بيته طفلان صغيران يحتاجان للكثير من الرعاية والاهتمام.
كان هايل يعلم أنّه بدّل غزاله بأرنب لكنّه سكت أمام إلحاح أمّه على زواجه كي تضع الزوجة الجديدة يدها معهم في مسؤوليّة بيته وأطفاله، وكان يعرف ما كانت تكنّه خالته وبناتها من عداءٍ وحسد لنورة لكنّه اعتقد أنّ ذلك قد انتهى مع غيابها.
ظلّت العروس تبدي السرور والفرح إلى أن داست قدماها بساطهم وحملت لهم في بطنها طفلاً جديداً ، فتمترست خلف

ضعف هايل الذي ازداد بعد خسارة زوجته وتيتّم طفليه، واستغلّت موضع أهله الذي انخفض كثيراً لما لحق بهم من لوم أهل القرية وصارت العروس ترميهم بحجارتها المخبّأة في جعبتها منذ سنوات. وكان الحجر الأول في وجه خالتها حيث طردتها من بيتها شرّ طردةٍ وأتبعتها بحفيديها حاتم وإيلين لتقوم على تربيتهما هي وبناتها بعد أن تسبّبن بحرمانهما من أمّهما. وحين وضعت طفلها الأول فرضت على هايل شرطاً أنّها ستغادر بيته وتترك له طفلاً ثالثاً إن سمح لأمّه وأولاد ضرّتها بدخول بيتها، فأذعن لها مضطرّاً كي لا يتسبّب بيتم الولد الثالث، فمُنع حاتم وإيلين من دخول بيت أبيهما منعاً باتّاً وعاشا في بيت جدّيهما يزورهما هايل حين يشتاق إليهما.

هذا الانتقام الذي لم تحسب له أمّ يوسف حساباً جعلها تبتلع جمر القهر سرّاً ليلتهم أحشاءها، وظلّت تكظم الغيظ في صدرها سنينَ عديدة إلى أن أنشب مخالبه في وجهها فأمسك بلسانها وشلّ حركتها شهوراً طويلةً ظلّت طريحة الفراش خلالها إلى أن أشفق عليها ملك الموت أخيراً وكتم أنفاسها إلى الأبد.وتولّت العمة الأصغر التي كانت تراقب ما يحدث بصمت دون أن يسمح لها بالتدخّل، هي من أخذت على عاتقها تحمّل النتائج حين وقعت الواقعة وكان ضحيّتها طفلين لا ذنب لهما، فاحتضنتهما وقامت على العناية بهما وكأنّ مقايضةً قد تمّت بينهم وأخذ كلٌّ من الآخر حاجته، قدّمت لهما حنان

الأمّ والعطف وأخذت منهما المحبّة والأمومة التي تحلم بها كلّ أنثى مذ تصبح قادرةً على نطق الحرف وحمل الوسادة.

نظر الطفلان في وجهها فإذا بنورٍ يعوّضهما عن الشعاع الذي انطفأ مع غياب أمّهما، تلمّسا يديها ففاض منهما سيل حنانٍ جارف فجلسا في حضنها وأغفيا على هدهدات صوتها، وكانت هي إذ ترى في عيونهما المحبّة والسعادة بقربها تغمرها سعادة مختلفة الملمس والطعم.

كبر الطفلان وصارا شابّين وأثمر فيهما الحليب الذي أرضعته لهما نورة يوماً فارتوت منه فسائل المحبّة التي زرعتها أمّهما الثانية على أغصان روحيهما وأزهرت وما زالت تتضوّع بالعطر.

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

## الخاتمة

وكأن الرصاصات التي اخترقت جسديْ ابنيّ عمّك يا إيلين قد أطلقت فوارغها لتستقرّ في قعر ضمير والدهما يوسف وتنكزه فتوقظ خدر الألم الساكن فيه، فإذا به يترك العزاء قائماً في داره ويتوجّه إلى دار جدّك أبي عامر ليتقبّل منه العزاء حين علم أنّ الشيخوخة والمرض قد منعاه من حضور المأتم.

أتى يشحذ من عينيّ جدك نظرة تَشَفٍّ وشماتة علّها تخفّف من آلامه، لكنّه عبثاً حاول ذلك فإنّ ما حدث اليوم لم يزدِ جدك إلّا رضىً وتسليماً بعدالة القاضي الأعظم الذي سلّمه قضيّته يوماً، وها هو يصدر الحكم كي لا يخيب ظنٌّ به أبداً...

''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''''

تمّت